مصطفى الصيّاح

أشباح هافانا

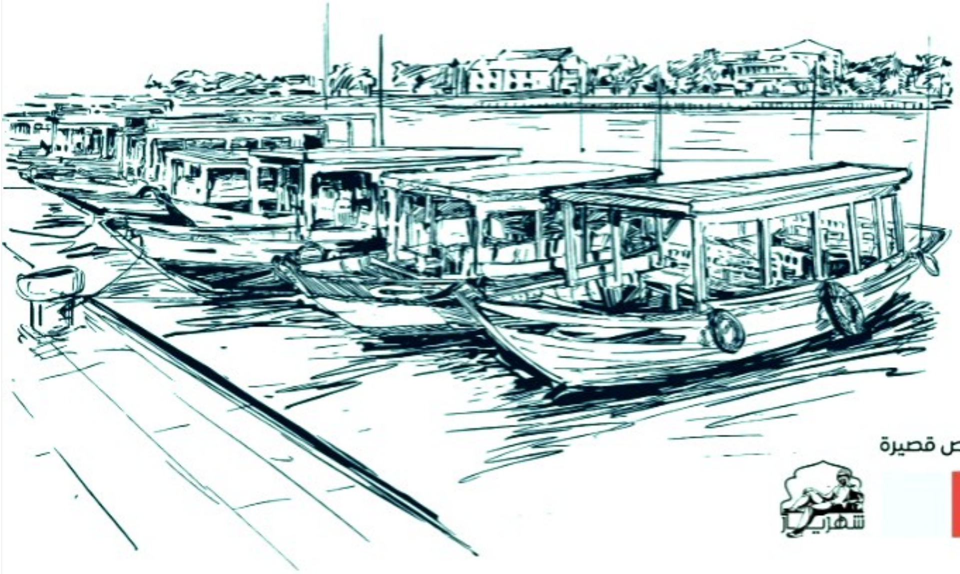

قصص قصيرة

شهريار

أشباح هافانا

أشباح هافانا.. قصص قصيرة

تأليف: مصطفى الصيّاح

الطبعة الأولى 2024

الغلاف: ماهر عدنان

دار شهريار للنشر والتوزيع

Shahrayar Publishing and Distribution

Copyright©2024 by Shahrayar Books

العراق- البصرة- العشار

009647730800453- 009647814145195

بـريد إلكتـرونـي: shahrayarbook@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، من دون إذن خطّي من الناشر.

التـرقيم الدولي ISBN: 978-9922-8600-8-4

مصطفى الصيّاح

أشباح هافانا

قصص قصيرة

شهريار

أشباح هافانا

الشتاء بارد على من لا يملكون الذكريات الدافئة

دوستوفيسكي

أثارت نفحة شاحبة من الريح بعض الأوراق الغافية على الأرض، وشاكستها للحظات في فضاء الحديقة، قبل أن تدعها تكمل غفوتها بهدوء فوق أريكة مهجورة تتكئ بتكاسل على جذع شجرة صفصاف هرمة، حيث كان في الأعلى، وتحديداً في الفراغ القريب من النافذة، ثمّة أعواد عارية ترتجف من دون حفيف، وزقزقة متقطّعة تتجاوب مع نباح يتهادى من مكان ما. وفي الأغلب، لم يكن يسمع في الجوار، غير هذين الصوتين المتباعدين.

نفحة أخرى زحفت عبر فسحة ضئيلة أسفل البوّابة الحديدية، وانزلقت على أطراف العشب الذي بدا قاتماً تحت سماء كانون العاجزة عن المطر. إلّا أنّها هذا اليوم، وعلى نحوٍ مفاجئ، اكتست بطبقة كثيفة من السحب الداكنة التي أخذت تتقدّم ببطء من جهة الخليج، وقد تطلّع إليها باهتمام من وراء نافذته، لكنّه سرعان ما أدار بصره إلى كوّة صغيرة أعلى الجدار، عندما لمح بعض الطيور التي كانت تطلب الدفء هناك. وكمن يحاول أن يرسم عشّاً، وضع إصبعه على زجاج نافذته، وفتح بعض الخطوط في الغبار. التفت ثانيةً إلى الغيوم المعلّقة فوق البحر، وفكّر في السفن الراسية التي ستنطلق عمّا قريب نحو موانئ بعيدة..

"سفينة واحدة أبحرت باتجاه الشرق، حيث الأرض التي يحلم بها الجميع، كان على متنها ثمانون رجلاً. قيل إنَّ عاصفة هوجاء كمنت لهم، فألقوا بطعامهم في البحر، لكنَّهم لم يلقوا ببنادقهم، وعندما وصلوا انحنت لهم أشجار جوز الهند".

التمع البرق، ورأى ظلاً داكناً يطفو في زجاج النافذة، لم يكن بالتأكيد ذلك الوجه الذي يعرفه، بدا وكأنَّ شخصاً آخر لاح أمامه لبرهة ثمَّ اختفى. انتظر لحظات حتى ظهر البرق مجدّداً، لكنّه هذه المرّة لم يستطع تتبع قسمات وجهه بوضوح، فقد لطّخت بعض قطرات من المطر نقاء النافذة. ظلَّ من دون حراك، يطارد ظلّه المتباعد بعينين سابحتين في الفراغ الفضي الذي امتلأ برائحة الطين. بعدها بقليل، شعر بدفقة هواء بارد تتلوّى على قدميه المنسدلتين في الظلال الراكدة التي تجمّعت حول مقعده الخشبي..

لسبب ما، تراءت له الحديقة في هذه الظهيرة الغائمة، مهجورة وموحشة؛ ربَّما لأنَّه لم يخرج إليها منذ عدّة أيّام، أو قد يكون بسبب مساحتها المترامية حول البيت، هكذا فكّر. وقد يرجع السبب كذلك إلى بركة الأوراق البرتقالية المخشخشة التي تجمّعت أسفل خط الأشجار المحاذي لسور الحديقة الواطئ، والتجاعيد والشقوق التي بدأت تلوح في التربة من بين أنصال العشب وكأنَّها وجوه عجائز موتى تحدّق إليه من تحت التراب، وذلك التشابك البدائي لأغصان اللبلاب وفروع شجرة الصفصاف العارية، وسط الهسهسة الكئيبة للسعف الكث التي تصدرها هبّات الريح المتقطّعة. لكنَّه مع هذا كله، كان يجد في أجزاء أخرى من الحديقة، ما يدعوه للوقوف طويلاً إلى نافذته، لاسيّما في الجزء المفضّل لديه، هناك، حيث ركن سيارته الشيفروليه، آخر مرّة، منذ سنوات غير قليلة.

نقاط صغيرة من المطر، بدأت تسيل الآن على لحاء الشجر المتقشّر، وتزعج دودات القز النائمات بطمأنينة داخل شرانقها الحريرية، ومع الوقت أخذت مزاريب السطح الصدئة تخدش هدوء الحديقة بخرخرتها المتلاحقة. ومن خلف زجاج نافذته أنصت لدمدمة رعد بعيد تسري في السماء الرمادية، وعبر الوميض الفضّي للبرق، لمح هذه المرّة شخصاً ما، في نهاية الشارع، يقفز بحذر، مع مظلّته السوداء، فوق برك المياه التي كانت تتسع بمرور الدقائق. لكنّه شعر برعدة أخرى تسري في

أوصاله، عندما أحسَّ بأنَّه قد أطال الوقوف إلى النافذة هذا اليوم، كما لو أنَّ المطر قد استلَّ من وقته بعض الدقائق التي لم يعد يملك منها الكثير. تناول عصاه التي أسندها إلى الحائط، واستدار نحو المدفأة، وتفحّص مؤشّر النفط فيها، ثمَّ جلس في مقعده ومدَّ ساقيه بحيث لامست أصابع قدميه حواف المدفأة. أغمض عينيه، وراح ينظر إلى الدفء الهادئ الذي تسرّب إلى جسده مثل ضوء مصباح عتيق يندلق على جنبات زقاق مظلم في مدينة مهجورة. ثمَّ حرَّك يده، وكأنَّه أراد أن يعمّق من شعوره بالأمان، وتلمّس أشياءه على المنضدة: نظارة طبية ذات إطار معوج قليلاً بفعل الزمن، كيس دوائه الذي يحتوي على علب أكثرها فارغة، كتاب الأدب والثورة لتروتسكي بترجمة جورج طرابيشي، جهاز راديو - كاسيت ماركة فيليبس الذي ما يزال يعمل على أحسن وجه منذ خمسين عاماً، الذي كان قد اشتراه من فتاة فقيرة في أحد أسواق هافانا الشعبية، فضلاً عن صندوق صغير من خشب الساج البورمي، مطرّز بالنحاس ومزجّج بقطع صغيرة من المرايا الملوّنة، ومزوّد بقبضة من شرائط جلدية فوق الغطاء المفصلي، وقفل بمزلاج مصنوع من الكروم، يخفي وراءه العديد من البطاقات البريدية التي كانت تصل من مدن وعواصم بعيدة. احتفظ بالصندوق الخشبي داخل صندوق خشبي آخر يفوقه حجماً، كان يقبع لسنوات طويلة على أرضية دولاب الملابس القديمة، الذي كان قد أعاد استخدامه كخزانة مكتبية، بعد وفاة زوجته.

أخرج الصندوق هذا الصباح، من مخبئه الحريز، من دون أن يعي السبب الذي دفعه إلى ذلك، وعندما حاول أن يمسح عنه التراب، توقّف قليلاً، ورفعه إلى أنفه وكأنَّه أراد أن يشمَّ في خشبه المعفّر بغبار السنين، عبق الغابات القديمة، ثمَّ تحسّس بأطراف أصابعه الجافّة الرسومات الناتئة التي حفرها أزميل نحّات ما، على ضوء مصباح زيتي يترنّح فوق رأسه، في ليلة استوائية ماطرة. مرَّ بيده على الصندوق، ولربَّما قال في نفسه: لا بأس في سماع الموسيقى الآن. ثمَّ انصرف إلى كتابه..

*

وصلت، كما في كل يوم، عند الساعة الثالثة بعد الظهر، وما أن فتحت الباب حتَّى انهمرت على رأسي أنغام فانجليس المجنونة. أنغام متهوّرة بما فيه الكفاية، قادرة على عبور بحر من الحديد المنصهر. تقدّمت خطوتين أو ثلاث في الفناء الضيّق الذي يقود إلى السلّم، قبل أن يستوقفني تغيّر مفاجئ في اللحن. كان بعيداً وهادئاً هذه المرّة، أشبه بابتسامة ذاوية طفت على وجه فتاة مكتئبة. تتبّعت النغم المنهمر من الأعلى بخطوات بطيئة حاولت أن أكتم فيها صدى أنفاسي المتسارعة. طرقت على الباب طرقة واحدة بمقبض مظلّتي السوداء التي لم تنشف بعد، فاستقبلني بنظرته المعهودة من فوق نظارتيه، وبفمه المفتوح قليلاً خلف شواربه البيض المتدلية، وبتحيته الكاريبية:

- لقد تأخرت اليوم.

- دقائق ليس أكثر، بسبب المطر.

- دعها تمطر.

- لقد طبخت لك اليوم أمي الطعام الذي كنت تطلبه دائماً في زياراتك السابقة لوالدي، سأتركه لك في المطبخ.

عدت من المطبخ بقدحين من الشاي يتصاعد منهما البخار مثل مركبين يبحران تحت سماء غائمة. وجلست إلى جانبه أمام النافذة التي أخذ الضوء فيها ينحسر بسبب المطر الذي ما يزال ينزل بهدوء في الخارج، ومع الوقت بدأت تتشكّل على السجّادة القاتمة هالة قرمزية متدرّجة من ضوء المدفأة. وبشعور لم أفهم سرّه وطأتُ تلك الهالة الدافئة بقدميَّ الباردتين، واستسلمت لنشوة غريبة، أو لشراب مسكر لذيذ من بورتريهات شتائية: الرذاذ الهادئ، قدح الشاي الساخن، رائحة

بحّار عجوز على وشك أن يبدأ حكايته، موسيقى بيانو تنبعث من ذلك المسجّل الكوبي القديم، وظلام الغرفة الذي يحيل ظلال الأشياء إلى كائنات ملغّزة.

- لقد قلت بأنّكم بدأتم بإفراغ حمولتكم من التمور..

- نعم، لقد وصلنا إلى ميناء هافانا في ديسمبر من العام 1962، حيث كان الجميع يستعدُّ لأعياد الميلاد. بدأنا بإفراغ حمولتنا من التمور بسرعة، لكن قبل أن يتمَّ شحن بضاعتنا من السكّر الكوبي، حسب برنامج التبادل التجاري بين البلدين آنذاك، اتضح أنَّ هناك عطلاً ما في محرك الباخرة. ووضَّح الكادر الفني أن إصلاحه يتطلّب مدّة طويلة جدّاً. وقد منح الكابتن لبقية الكادر إجازة مفتوحة، وهذا ما مكّننا من التسكّع في شتاء هافانا لخمسة أسابيع كاملة. كنَّا ننام معظم فترات النهار، ونقضي ساعات المساء بالتجوّل في شوارع غاصّة، مزدحمة، إلى أن تُطفأ الأضواء في المتاجر والحانات، ويذهب الجميع إلى مضاجعهم، وتعود الشوارع من جديد، خافتة، مقفرة. ويحدث أحياناً أن نتعثّر بأجساد السكارى والمشرّدين. وكثيراً ما كنَّا نمرُّ ببيوت واطئة تتدلّى أمام أبوابها فوانيس خافتة تتأرجح فوق نساء متأفّفات على الدوام سرعان ما يبدأنَ بإطلاق الشتائم والسباب إذا ما أكمل أحدهم طريقه من دون أن يلقي بالاً لعروضهنَّ الرخيصة. وفي أحد الأيّام المشمسة استيقظت في حدود التاسعة صباحاً، فأخذت حمَّاماً وانطلقت إلى الشارع. لم أكن قد شاهدت هافانا تحت الشمس من قبل، كانت تبدو كإلهة سمراء، تتمدّد غافية بالبكيني على ساحل طويل من الرمال البيض، تغسل أمواج الأطلسي قدميها الحافيتين منذ عصور ما قبل فيلاسكيز ديكيولار، وترشُّ شمس الكاريبي جبهتها بقطرات مكتنزة من الضوء الفوّاح برائحة السيجار، وعندما تستفيق وتنهض متثائبة، كسلى، تتطلّع باعتداد إلى نفسها في مرآة لاجونا دي ليتشي، ثمَّ تأخذ بين يديها بعض الماء من سحب شواطئ فاراديرو البنفسجية وتسكبه على مزارع البن في

سهول ماتنزاس، وغابات المنغروف في فيلا كلارا. ثمَّ ترتدي ثيابها المعطّرة بالدخان المحلّى الذي تنفثه مداخن مصانع السكّر المبعثرة هنا وهناك، مثل غلايين عملاقة.

تسكّعت ذلك الصباح على طول السور البحري في طريق مالكون، حيث تتكسر أمواج خليج المكسيك تحت صخور قلعة مورو المنيعة. بعد أن تناولت صحناً من طبق روبا فيجا القومي عملاً بنصيحة من صاحب المطعم نفسه. إذ كانت هناك أسطورة تقول إنَّ رجلاً فقيراً لم يجد ما يطعم به أطفاله عند المساء، وفي لحظة يأس شديد، مزّق ثيابه إلى قطع صغيرة ثمَّ طهاها في إناء كبير، وبمعجزة تحوّلت أسمال الرجل العجوز إلى حساء لحم لذيذ. لكن لحسن الحظ لم يكن طبقي يحتوي إلّا على لحم بقر حقيقي وحبّات من الفاصوليا الحمراء والرز المطبوخ جيّداً مع صلصة من الطماطم والبصل والفلفل الحار. بعدها احتسيت كوباً من القهوة القويّة الحلوة، ثمَّ خرجت إلى الشارع الذي يعجُّ بالسيارات الأمريكية الفاخرة: البويك، الكاديلاك، الدودج، والميركوري، بألوانها الفاقعة وكأنَّك تسير في الأراضي المنخفضة وسط حقل من حقول التوليب.

التقيت بها هناك للمرّة الأولى، عندما ذهبت لأرى المدافع الصدئة في قلعة مورو، وقراءة بعض الصفحات من أشعار جون كيتس. كان نسيم البحر الهادئ يداعب نهايات شعرها الكستنائي الذي يظلّل وجهها القمحي، ويرفع قليلاً من ثوبها القصير، وقدماها تتأرجحان بحذاءيها الأبيضين فوق السور الحجري مثل نورسين يتقلّبان في زرقة سماء الأنتيل. كان المكان يغصُّ بالناس الذين لا يفوتون عطلة يوم الأحد، مع ذلك فقد لمحتها من بين آلاف الوجوه التي تنظر إلى البحر، وحدها كانت هناك تتألّق تحت شمس الكاريبي مثل خاتم ذهبي بين أصابع قرصان خبير. أشياء كثيرة تحدث في الحب لا يمكن أن نجد لها تفسيراً، فبينما كنت أتطلع إليها من مسافة ليست بالقريبة، التفتت هي نحوي وراحت تنظر في عيني مستفهمة. بدا عليها

الارتباك بعض الشيء، وقد خفضت عينيها إلى الكتاب الذي في حضنها، إلَّا أنَّني لم أتوقّف عن التحديق إليها، وعندما تطلّعت إليَّ ثانية ابتسمت ابتسامة مرحّبة.

أذكر أنَّني سألتها عن بعض الكتب التي قد تساعدني على تعلّم الإسبانية. فقالت:

- أنا في طريقي إلى بلازا دي آرماس، إنَّه سوق كبير لبيع الكتب، كما أنَّه لا يفتح إلَّا في أيّام الآحاد.

- يبدو أنَّني وصلت في الوقت المناسب.

ركبنا قارباً صغيراً عبر بنا إلى الضفّة الثانية من القناة، حيث ترتفع قلعة سان سلفادور دي لا بونتا الشامخة، ثمَّ من هناك مشينا بمحاذاة حاجز حجري يطلُّ على ساحل ضيّق تنتشر على طوله جماعات ممّن يفضّلون صيد الأسماك بالشص. ومن تحت حصن القوّات الملكية جاء دوي قرعِ أجراس كاتدرائية هافانا المجيدة، يهدر مع الريح فوق أمواج الخليج المتلألئة، وعندما انعطفنا في شارع فرعي، أشارت بيدها إلى ساحة مرصوفة بالحجر البركاني، وتظلّلها أشجار كبيرة، أضفت عليها رائحة الكتب القديمة بعض الوقار، قالت:

- إنَّه بلازا دي ارماس

صفوف من بائعي الكتب، كانوا يعرضون؛ فضلاً عن الكتب الجديدة والمستعملة، مجلّات تتحدّث عن الموضة والرياضة وميكانيكا السيارات والكثير من صحف الثورة، وطوابع وبطاقات بريدية وأكوام من الملصقات الدعائية، وسدادات كوكا كولا وقناني بيرة قديمة، وكل ما يبحث عنه هواة الأنتيكات وجامعو التذكارات الفريدة.

اشتريت بعض الكتب التي ستساعدني، وقاموس جيب باللغتين الإسبانية والإنكليزية. ثمَّ تجوّلنا طويلاً بين الأكشاك الخشبية، وتوقّفنا عند بائع كبير بالسن يعرض كتباً أدبية، ويبدو أنَّه كان معجباً بهيمنغواي كثيراً، فأغلب الكتب التي يعرضها كانت روايات وقصص لهيمنغواي أو كتباً تتحدّث عن أدب هيمنغواي نفسه، فضلاً عن الصحف التي نقلت نبأ فوزه بجائزة نوبل، أو حتَّى صوره على البحر أو في بيته أو مكتبه. كان يبسط كتبه أمام المارّة مع ابتسامة واثقة يتنقّل بها بين وجوههم. لكن، ما لفت انتباهي أنا كان شيئاً آخر. هناك على مجموعة من المجلّات القديمة انزوت علبة أقلام إنكليزية فاخرة من نوع باركر، علبة قديمة جدَّاً، وعندما سألته عن ثمنها تبيّن أنَّها تحتوي على شيء آخر. تناول الرجل العلبة بهدوء وهو ينظر إلينا بثقة، ثمَّ أخرج منها لفافة تبغ بدت مستعملة قليلاً، كما لو أنَّ أحدهم أشعلها وسرعان ما ربّت عليها بإصبعه ليطفئها. أمسك بالسيجار من عقبه، ورفعها أمام عينيه، كأنَّما ينظر إلى شيء غاية في الرقّة والشفّافية، ثمَّ قال بنبرة جادّة بعض الشيء وهو يقلب نظراته بيننا:

"قبل ثلاث سنوات عندما وقف تشي جيفارا في عشيّة عيد الميلاد، وتجمهر حوله الناس، وهو يبتسم لهم والسيجار ما يزال في فمه، حدث هناك، بعد دقائق، تدافع كبير، وفي لحظة ما، أفلت السيجار من فمه وسقط أرضاً. وبعد أن تفرّق الجميع، ذهبت والتقطت السيجار الذي لم ينتبه إليه أحد. لقد تفاجأت بحالته السليمة إذ لم يحدث إن وطأته قدم أحدهم برغم الزحام الشديد الذي كان هناك. لقد عرض عليَّ الناس الذين أخبرتهم بقصّة هذا السيجار أن أعرضه في مزاد، ولكنّني رفضت، فمن سيصدّق أنَّه سيجار تشي جيفارا، فهافانا مليئة بالسيجار الفاخر، والمخادعين كما تعلمون. لكنّني كنت كلّما شعرت بالضيق أخرجته وتحسّست رائحته، كنت أشعر بالحرّية تتسرّب إليَّ من لفّافة التبغ هذه. وقد وضعته هنا مع التحف التي أعرضها، لأنَّه المكان المناسب له بين الأشياء النفيسة التي أملكها، هنا حيث يجب أن يكون".

لا أعرف ما الذي جعلني أثق بكلمات الرجل، لقد بدا صادقاً من نظراته، ثمَّ أنَّ العلبة بدورها ذات قيمة جمالية، فضلاً عن التاريخ القديم المدوّن عليها، وهو بحدِّ ذاته ما يرفع من قيمتها المادية، ناهيك عن قدسية السيجار الذي تحتويه لو افترضنا أنَّ ما يقوله البائع كان حقيقيّاً. نظرت إلى صديقتي الكوبية فهي أدرى بأبناء جلدتها، بحثت في عينيها عن جواب من دون أن أسألها، فوجدتها هي الأخرى كانت تبدو مطمئنة، لذا دفعت ثمن العلبة وخرجنا من السوق.

دعتني في اليوم التالي، إلى تجربة شراب الديكويري المخفوق بالثلج والليمون في حانة فلوريديتا، في الجزء القديم من المدينة. كانت الإضاءة في الحانة خافتة جدَّاً، ومن جهاز غرامافون قديم انبعثت بحزن طفيف موسيقى الباليرو الإسبانية. الجميع كانوا يحتسون شرابهم بوجوم، ومع ذلك كانوا يبدون في غاية السعادة وهم يحدّقون إلى الرجل الذي يستند بذراعه إلى البار. مالت برأسها قليلاً نحوي وقالت:

- هل تعرفه؟

- وجهه مألوف!

- إنَّه، هيمنغواي، آرنست هيمنغواي بلحمه ودمه.

كانت تتحدّث ببطء مراعاة لإسبانيتي البائسة، وفي أوقات كثيرة كانت تستعين بقاموس الجيب الذي أحمله معي، لتترجم لي بالإنكليزية الجمل التي يصعب عليَّ فهمها. ولقد حاولت في أكثر من مرَّة أن أوضّح لها، من أنَّ الأمر لا يحتاج إلى قاموس، إذ ليس عليَّ سوى أن أتطلّع إلى عينيها وهما تطرفان بهدوء في أثناء الكلام، وعندها أكون قد فهمت كل ما كانت تريد أن تقوله. ففي عينيها كان يمكنك أن تتعلّم أكثر من لغة!

- هيمنغواي نفسه؟

- نعم، منذ سنوات طويلة وهو يتردّد على هذا المكان، حتَّى نوبل لم تنجح في اقتلاعه من هذه الحانة، إنَّها المفضّلة لديه. هل قرأت له شيئاً؟

- لا، ليس بعد. لكنّني سأقرأ له بالتأكيد عند عودتي إلى الوطن.

فتحت حقيبتها، وأخرجت منها بطاقة بريدية يظهر عليها فندق من الطراز الكلاسيكي كتب تحته بحروف صغيرة جدّاً "فندق أمبوس موندوس"، قالت مبتسمة:

- إنّه الفندق الذي يقيم فيه عندما لا يكون في مزرعته. سأطلب منه أن يترك توقيعه على هذا البوست كارت.

- شكراً لك. إنَّه شيء عظيم، سأحتفظ بها مدى الحياة.

تركنا هيمنغواي وحيداً، يصغي لأمواج شاطئ كوخيمار، وغادرنا الحانة بعد أن اتفقنا أن نلتقي بعد ثلاثة أيّام بسبب انشغالها ببعض الأمور التي تخصُّ العائلة. لكن بعد يوم واحد فقط، جاءت الأخبار السيّئة من المرفأ، لقد أوشك الخبراء على الانتهاء من إصلاح العطب الذي أصاب المحرّك العملاق. اتصلت بها من هاتف عمومي، وأخبرتها بأنَّ السفينة ستبحر في غضون ثلاثة أيام. تنهّدت بعمق، وتلفّظت بكلمات لم أستطع فهمها، ثمَّ سمعت دموعها تنزل على سمّاعة الهاتف، مثل بقايا قطراتٍ ما تزال تسقط على حافّة شبّاك بعد ليلة ماطرة. وفي الحقيقة لم أكن أعرف سبب ذلك الحزن. ألم يكن الأحرى بها وهي على هذا القدر من الأنوثة والجمال، أن تقع في غرام أحد أبناء الحي الذي تقطن فيه ممّن أخذ أعلى الشهادات، أو تفكّر بالزواج من رجل مهم في الثورة يظهر في صور الزعيم كلّها. لِمَ هذا الجنوح المميت كلّه والميل الحاد لشخص لا تعرف عنه سوى عنوان الفندق الذي يقيم فيه؟ بحّار في مقتبل العمر جاء عبر البحار البعيدة، وسيعود عمّا قريب

إلى حيث الشمس والطين وهسهسة السعف اليابس في تنانير الفجر، ومحملاً بالسكّر الكوبي الأسمر مثل نملة سعيدة.

أذكر جيّداً، عندما جاءت لمقابلتي في اليوم التالي، عند السور البحري في طريق مالكون المضاء. كانت ترتدي تنّورة طويلة هذه المرّة، وقميص بأكمام طويلة أيضاً، وتلفُّ شريطاً أسود يتطاير طرفاه خلف عنقها الذي لاح بياضه. اتكأت إلى جانبي على السور الحجري، وراحت تنظر إلى أمواج خليج المكسيك المصطبغة بلون الغسق القرمزي. والرياح التجارية تهب باردة مع حلول المساء. كانت هناك سيارات لبعض السواح تمرُّ من ورائنا، وبعض الباعة الجوّالين الذين استاءت كثيراً من وجودهم، برغم أنّي كنت أبعدهم عنها بإيماءة منّي من وراء ظهرها. مع الدقائق، بدأت تلتمع أضواء فندق كوبا انترناشيونال على أبدان السفن المبحرة في مياه الخليج، إذ حلّقت على ارتفاع منخفض منها أسراب من النوارس في طريق عودتها إلى مخابئها الصخرية قرب غابات المنغروف. ومع هسهسة رياح المساء الباردة كانت صرخاتها تتجاوب مع صيحات أبواق السفن المبتعدة، بوتيرة بطيئة، منغمة، ولكنَّها تنذر بالرحيل.

- إذاً سترحل

- ستبحر السفينة يوم غد..

- ومتى ستعود؟

- ليس أكثر من سنة.

- هذا وقت طويل جدَّاً، ربَّما لن تجدني.

- ربَّما أقل بكثير، هذا يعتمد على حركة الملاحة.

- لن تجدني في الأحوال كلّها..

مرَّ من أسفل السور البحري حيث كنّا نقف بالتحديد زورق صيد سياحي، كان على متنه زوجان عجوزان نظرا إلينا ولوّحا بأيديهما، فيما هتف بنا قائد الزورق من مكانه بعد أن التفَّ مبتعداً نحو ميناء هافانا:

- بوينا سويرتي

لوّحت لهم بيدي، وردّت هي التحيّة بابتسامة منطفئة، ثمَّ حلّت بيد مرتبكة وبسرعة مفرطة الشريط الأسود الذي يلتفُّ حول عنقها، وكأنَّها طائر مخنوق، ثمَّ ألقت به في الريح، وراح يتقلّب فوق صفحة مياه الخليج القرمزي. وقالت بنبرة مؤكّدة:

- لن تجدني حتَّى لو عدت في العام القادم

وفي الحقيقة لم أفهم إصرارها على هذه الكلمة، لقد وعدتها بالعودة مجدّداً، لكنَّ سفينتنا وصلت إلى ميناء البصرة في خريف العام 1963. وبعدها بعام تقريباً وصلني بريد من بوينس آيرس. كانت الرسالة مكتوبة بخطِّ يدها، استطعت أن أعرف ذلك حتَّى قبل أن أقرأ اسمها المكتوب أسفل الورقة. لم تخبرني طوال تلك المدّة التي أمضيناها معاً، بأنَّها كانت مصابة بالسرطان، ولقد أبحرت إلى بوينس آيرس لتلقّي العلاج هناك، وقد كتبت هذه الرسالة من داخل المستشفى، ويبدو أنَّها دفعتها إلى إحدى الممرّضات، وطلبت منها أن تتركها في البريد في حال وقوع أيّ مكروه لها. لقد كتبت أسفل الرسالة بخط واضح:

إذا كنت تقرأ هذه الكلمات، فأنا ميّتة الآن!

وداعاً إلى الأبد.

وأخيراً كفَّ البحار العجوز عن الكلام، وألتمع برق بعيد في السماء، وأضاء عروقه الجامدة في ظلام الغرفة، وكشف الزمن المراق على عقارب الساعة. كلّ شيء من حولنا كان لا يجرؤ على الحراك، سوى شريط الموسيقى الذي ما يزال يدور في المسجّل بحزنه الشوباني المعتاد.

- تأخّر الوقت، سأعود غداً.

- إنَّها هناك على حافّة النافذة، يمكنك أن تحتفظ بها.

تقدّمت من النافذة، حيث كانت أعمدة الشارع ترسل بعض النور الخافت إلى داخل الغرفة. وقد أضاءت آثار الحروف الممحوة على علبة أقلام إنكليزية أنيقة. تناولت العلبة من على حافّة النافذة، وفتحتها بهدوء، وأخرجت السيجارة المقدسة منها..

توغّلوا كثيرًا في الغابة، تحت وابل من لسعات البعوض. كان الظلام عميقًا تلك الليلة، غير أنَّ الجوع كان أعمق منه بكثير. مضغوا أوراق التبغ، وتطّلعوا إلى أعالي الطريق. وبصوت هادئ راحوا يردّدون أغنية من أغاني عيد الميلاد.

دسست السيجار في جيب سترتي، وهبطت السلم المضاء دائماً بمصباح أصفر كئيب الذي يقود إلى الحديقة، ثمَّ غادرت المنزل وأنا أفكّر بالفتاة التي تطلّع إليها شوبان عندما كتب ذلك اللحن.

تراكمت الظلمة في الخارج، وبدت الأشياء متشابهة إلى حدٍّ ما. تجوّلت مع الريح الباردة في شوارع هافانا الموحشة، وفي البعيد كان هناك ضوء درّاجة نارية يتبعثر على جانبي الطريق...

Heartbreak Hotel[1]

[1] عنوان أغنية للمطرب الأمريكي ألفيس بريسلي.

عزيزي ثيو، إنَّ الفراغ والتعاسة الداخلية التي لا يمكن التعبير عنها،

جعلتني أستطيع تفهّم الناس الذين يلقون بأنفسهم في الماء..

فان كوخ إلى ثيو 1882

عندما تغيب الشمس، وتهدأ الحياة في الخارج، وتكفُّ الماكينات في مطبعة يوسف حدّاد- على بعد مئات الأمتار- عن التكتكة، يحدث أحياناً أن يسمع أحدهم، لاسيّما هؤلاء الذين يسيرون بمهل بعد أن يكونوا قد اجتازوا عدداً من الأزقّة الضيّقة، في طريق عودتهم إلى منازلهم الطينية عبر الجسر العائم على مياه شط العرب الدافئة، ليمرّوا تحت نوافذ الطابق الأول في فندق جهة النهر ذي الواجهة الجميلة التي تحمل جينات الهندسة الكولونيالية، أن يسمعوا موسيقى الروك آند رول تنهمر من النافذة المفتوحة قليلاً أمام هواء كانون المنعش. وكان من الطبيعي جدّاً أن يرفعوا أعينهم ليروا الضوء الفاتر الذي يتسرّب من الزجاج النظيف، وأن يتحسّسوا أيضاً، بأنوفهم المشبعة بذرّات الغبار، شذى عطر فيجي الفاخر يملأ الفضاء القريب من النافذة، ممتزجاً برائحة مسكرة لذيذة تتصاعد من عنق طويل لزجاجة براندي نوع هنسى المستورد من شركة فرانك سي سترايك اللندنية. وهي رائحة تضاهي بالتأكيد مذاق حبّات العنب المتدلية تحت عرائش الكروم الساذجة في بساتين أسلافهم الهالكين.

وكان لا بأس أيضاً في أن يلتفتوا قليلاً ليشاهدوا تأنّقهم المتخيّل منعكساً على الطلاء اللامع لسيّارات الفورد والميركوري الواقفة أمام واجهة الفندق، التي ستقل،

بعد قليل، سيّدات الفن الجميلات ورجالات المجتمع الراقي، إلى الحفلات الليلية التي دأبوا على حضورها في البارات القريبة المنتشرة على جادات شارع الوطني.

ولأنَّه لم يكن باستطاعة المارّة الوقوف لأطول مدّة ممكنة بسبب نظرات الحارس التي تنسجم تماماً مع بذلته الداكنة، فقد كان كلُّ واحد منهم ينصرف مردّداً في نفسه ما علق في ذاكرته الموسيقية الهشّة من الحان أغنية "Heartbreak hotel" لألفيس بريسلي المتسرّبة من إحدى نوافذ الفندق..

حسناً مذ غادرتني فتاتي

وجدت مكاناً جديداً للإقامة

إنّه في نهاية شارع الوحشة

في فندق القلوب المحطّمة

هناك ستجدينني..

وحيداً.. وحيداً

حتّى لأوشك أن أموت...([1])

عند الخامسة عصراً، يضغط موظف الاستقبال من مكانه في الداخل على مفاتيح الإنارة، فيتوهّج الرصيف في الخارج بضوء قرمزي دافئ، بينما تطلق باخرة برتغالية كبيرة تقف عند الضفة الأخرى للنهر صيحاتها، فتندفع الأبلام والمراكب الصغيرة لتلتصق بالبدن الضخم للباخرة، يدلي بعض البحّارة البرتغاليين سلالهم فتمتلئ بعد لحظات بالتمر وزجاجات الويسكي والسندويشات الحارّة وكلوسات

---

[1] كلمات أغنية فندق القلوب المحطمة مترجمة إلى العربية.

الروثمان. تتفرّق القوارب مبتعدة في ظلام النهر، بحثاً عن سفينة أخرى قد تنادي عليهم في أيّة لحظة، فيما يترامى الضوء بهدوء، من اللوكسات المتأرجحة في المقدّمة، على الأمواج المنفلقة.

تجتاز نظرات حارس الفندق المكفهر شارع الكورنيش الذي يبدو حزيناً مع حلول الشتاء، يتطلّع باهتمام مبالغ بعض الشيء إلى السفن الراسية مقتفياً بينها أثر الباعة فوق مياه النهر. تزعق سفينة أخرى، لكنّه لا يستطيع أن يتبيّن جنسيتها، إذ كانت بعيدة إذ يصعب عليه تحديد ألوان العلم الذي يخفق في الريح من بين أشجار اليوكالبتوس. يشاهد باعة النهر يتجهون نحوها بسرعة لعرض بضاعتهم. يتخيل البوق الفولاذي للسفينة المجهولة ويصغي لصوته الذي يختلف عن بقية الأبواق في السفن الأخرى التي تمر من هنا في طريقها إلى ميناء المعقل.

ترتسم على وجهه الكئيب ابتسامة باهتة، مع انحناءة طفيفة لأحد نزلاء الفندق الذي يغادر يداً بيد مع امرأة جميلة في الأربعين من عمرها تقريباً، ترتدي فستاناً أنيقاً مع قبّعة رمادية وقفّاز أبيض وتلوح على كتفها الأيسر حيث تصعد أزرار الجاكيتة، فيونكة من قماش الدانتيلا الرخو، كما تظهر عادة الحسناء كلوديت كولبرت على غلاف مجلّات الموضة في الثلاثينيات. ترصد عيناه التماع الدبوس البرونزي في شعرها على الوهج البرتقالي لمصابيح الشارع، عندما تلتفت بهدوء إلى الرجل المتأنق وتقترح عليه أن يذهبا إلى سينما الحمراء لمشاهدة فيلم ما.

يصعدان سيارة فورد طراز **1952**، ينظر الحارس إلى ساعة يده الرولكس، التي تشير إلى السادسة والنصف مساءً. يفكّر في أنَّه ما يزال أمامهما المزيد من الوقت للوصول إلى صالة السينما في ساحة فيكتوريا قبل أن يبدأ العرض الأخير لفيلم الهمس الصاخب. يلاحق بعينيه المنهكتين أضواء السيارة قبل أن تختفي في طريق فرعي مظلم.

يغيب للحظات في حلم هادئ، ويداخله شعور غريب بأنَّه قد سبق له أن رأى هذه المرأة من قبل، أن أمسك بيدها ذات شتاء بعيد، وتجولا معاً تحت المطر. أن شاهدا فلمهما المفضل في سينما الحمراء، وأن همس في أذنها، في اللحظة التي أطلّت فيها كلوديت كولبرت "من المؤكّد يا عزيزتي أنَّها لا تفوقك جمالاً". وأن استمعا بعد انتهاء السهرة لأغنية Heartbreak hotel، وتبادلا القبل داخل سيارة الميركوري!

يستفيق من حلمه، على أضواء سيارة بيك آب، تظهر، على نحو مفاجئ، من طريق فرعي، وعلى الرغم من البطء الشديد الذي كانت تتقدّم به السيارة على الشارع، إلَّا أنّه كان يستطيع أن يسمع، من مكانه، طقطقة زجاجات الويسكي داخل الصناديق الخشبية، التي لم تمنع أيضاً من انتشار الرائحة، على امتداد الطريق، من إحدى الزجاجات المهشّمة. تقف السيارة على مسافة عشرة أمتار من واجهة الفندق، وينزل منها ثلاثة رجال يعلو التذمّر وجوههم، إذ إنَّ وصولهم كان قد تأخّر ساعتين بسبب الأمطار الشديدة التي هطلت منذ ساعات المساء الأولى، على طول الطريق الترابي الصاعد من الفاو.

يبدأ أحد الحمّالين بنقل الصناديق إلى المستودع عبر باب جانبي يقع إلى اليمين من واجهة الفندق، فيما ابتعد السائق، متفحّصاً عجلات سيارته التي اختفت تماماً خلف الأوحال. وبالرغم من مهارته في رصد حركات الآخرين، إلَّا أنَّ الحارس لم يستطع أن يعرف أين اختفى الرجل الثالث، الذي ظهر بعد دقائق من إحدى المحال التي تعرض خلف زجاج واجهتها بضائع إنكليزية مختلفة، إلَّا أنَّه بدلاً من المساعدة في إفراغ الحمولة، يراه يتقدّم نحو رصيف الشط، تحت شجرة ترتفع فروعها من جانب وتنخفض من جانب آخر، في محاكاة طبيعية لتنورة مارلين مونرو.

يجلس هناك على مقعد حجري من دون أن يزيح الأوراق اليابسة التي انسحقت تحته. يتأمّل العتمة الفضّية للماء التي انعكست من السحابة التي بدأت تغطي سماء المدينة، ويغرس نظراته الحادة في جوف النهر كما لو كان يتفحص وجه

أحدهم في الأسفل. يشعل سيجارة، ويرسل دخانها بهدوء مع الهواء البارد. ينتهي العامل خلال نصف ساعة من إنزال الصناديق كلّها بسلام، ويصيح بالسائق الذي يأتي مسرعاً، ثمَّ تبتعد السيارة بهما من دون أن يكترثا لأمر الرجل الثالث.

تتحرّك رياح خفيفة في الأشجار القريبة من شرفات الفندق، حيث ما يزال الحارس يتأمّل انحناءة الرجل فوق الماء. يتشكّل في أذنيه لحن كئيب، عندما يصغي إلى الحفيف الأخضر في الأغصان والصرير المبحوح للافتة الفندق التي تتأرجح فوق رأسه. يتتبّع بفضول حزين بعض الأوراق اليابسة التي تبتعد في الهواء، لتهوي في مياه النهر الذي بدأ يزداد برودة بعض الشيء، كلّما تناقص عدد المارة في الشارع.

يلمح، من بين الأغصان الراجفة، عاصفة رعدية تومض في الأفق، وتبدأ قطرات صغيرة من المطر بالهطول في الهالة الإسمنتية التي تشكّلت على الرصيف المضاء تحت أعمدة الإنارة. يشعل سيجارته، ويدفع بكمّيات كثيفة من الدخان في الفضاء الراشح بالرطوبة. ينظر عبر الدخان إلى أضواء السيّارات التي تتجه غرباً، ويأمل كأي رجل وحيد ألَّا يكفّ المطر هذا المساء عن النزول، ففي المطر تتفاقم الوحدة حتَّى تصبح شيئاً أقرب إلى الشبحية. ولكنّه هذا المساء لم يعد وحيداً، فهناك، على ما يبدو، من هو أشد منه وحدة!

يخرج الرجل تحت الشجرة سيجارة، لكن قبل أن يشعلها يلاحظ من مكانه عبر الشارع وهجاً خافتاً يومض لحظة ثمَّ ينطفئ بسرعة، إلَّا أنَّ ذلك لم يمنعه من أن يلمح في تلك الومضة الزمنية القصيرة، الوجه الذي رآه حارس الفندق قبل ساعتين من الآن، وجه كلوديت كولبرت يتألّق على وهج عود الكبريت.

شرارة في الليل قد تشعل كدساً من الذكريات. أليس كذلك؟

ثمَّ أنَّ أحدهم يفتح نافذة السيارة وينفث دخان سيجارته في المطر. يحمل الهواء إليه رائحة الدخان.

آه! يا لهذا الدخان، كم هو كثيف ومعتم!

يسمعها تنفجر ضاحكة، فيما تزلق يدها الناعمة منديلاً حريريّاً ليبتعد في الهواء، لكنّه سرعان ما يهوي إلى الأرض مثقلاً بحبّات المطر.

في الأعلى، يدور الشريط ثانية في المسجّل، وينحدر صوت جيتار ألفيس بريسلي مع الوشوشة التي يحدثها هطول ملايين القطرات فوق مياه شط العرب، وكأنَّه تصفيق أبدي في حفل شتائي صاخب..

هناك ستجد دموع البواب جارية

وموظف الاستقبال في بذلة سوداء

قد مضى عليهم في شارع الوحشة زمن طويل.. طويل

فلم يعودوا ينظرون إلى الوراء

هناك ستكون الحياة موحشة يا فتاتي

وسوف يكونون وحيدين.. وحيدين

حتَّى ليوشكوا على الموت...[1]

يتأمّلهما وهما يركضان تحت المطر حتَّى يختفيا خلف الزجاج الدافئ لبوّابة الفندق، ينظر ثانية إلى النهر ويشعر للمرّة الأولى بوحشة المكان وبرودة الليل. يبتعد ببصره إلى نهاية شارع الكورنيش، إذ يلفت انتباهه مصباح قرمزي باهت، يتدلّى وحيداً من على الجسر العائم فوق مياه النهر، وتبدو في ضوئه قطرات المطر كأنَّها

[1] كلمات أغنية فندق القلوب المحطمة مترجمة إلى العربية.

يراعات متوقّدة. يجد نفسه منجذباً إليها مثل فريسة صغيرة. ينظر إلى ساعة يده، إلَّا أنَّه يشعل سيجارته، وينتظر قليلاً. ثمَّ يغادر المكان من دون أن يترك لنفسه مجالاً للتفكير.

يترك مقعده الحجري وحيداً مثلما كان، ويتقدّم من دون أن يلتفت إلى الوراء، نحو الضوء القرمزي على الجسر، سالكاً الطريق المظلم تحت أشجار الصفصاف المطرقة، يداه في جيوبه، وعيناه على الرصيف!

ومن النافذة المفتوحة، التي أصبحت بعيدة بعض الشيء، يسمع ألفيس بريسلي يهتف وراءه بنبرة مؤكدة، ولكنّها حزينة بعض الشيء..

حسناً إذا هجرتك الحبيبة

وكان لديك ما ترويه

ما عليك إلَّا أن تقطع شارع الوحشة

حتى فندق القلوب المحطمة

وهناك ستكون

وحيداً.. وحيداً

حتّى لتوشك على الموت...[1]

---

[1] كلمات أغنية فندق القلوب المحطمة مترجمة إلى العربية.

الرقصات المجرية

الموسيقى تجعلنا تعساء بشكل أفضل

رولان بارت

مع منتصف الليل، تجتاز الشارع ريح باردة، وتنزلق على واجهات الدكاكين المعتمة، ثمَّ تبتعد بصمت نحو السوق القديم. تتناغم حشرجة اللافتات التي تتأرجح تحت ضوء القمر الشاحب مثل خفافيش عملاقة، مع قرقعة علبة معدنية تتدحرج بأريحية وسط الطريق، لتتبعثر أصداؤها الجوفاء هنا وهناك، لكنَّها سرعان ما تتلاشى عندما تصطدم بحافة الرصيف.

بعد دقائق، يأتي الوقع المعتاد لأقدام الحارس الليلي للسوق، أقدام ثقيلة، متباعدة، تعرفها الظلمة جيّداً. يهزُّ الأقفال بعنف، ليتأكّد من سلامتها. لكنّه يفعل ذلك بشكل مبالغ هذه المرّة، كما لو كان على عجلة من أمره، وبعد أن يتمَّ دورته حول الدكاكين المفرغة من بضاعتها، ينفخ في صافرته صرخة أخيرة لطرد اللصوص، ثمَّ يغادر السوق مسرعاً.

عند رصيف الشط، يرتفع المدّ تحت تماثيل الجنرالات القتلى، يبلّل الرذاذ بزّاتهم الإسمنتية، ويتسرّب إلى أقدامهم المتورّمة، وإلى حيث تشير أصابعهم البرونزية في الضباب اللامرئي على وجه الماء، تصعد شاحنة عسكرية بلا أضواء، الجسر الحديدي العائم باتجاه الضفّة الأخرى، وتختفي بين أخيلة النخيل كقطرة حبر تسقط على قماش أسود. تنهر موجة مباغتة قوارب الصيادين، تثير فيها الشباك الملطّخة بأحلام السمك وتحفّز حبالها المشدودة إلى أعمدة الإنارة. ينجرف حفيف أشجار النهر المسنّة، على أكياس الرمل المكدّسة فوق سطوح الفنادق والمباني

المجاورة، يختال خلف أبواب البنوك المغلقة وواجهات المطاعم التي حجبت بالألواح الخشبية.

تهدأ الريح الآن، وتتثاءب أشداق الأزقّة، تفوح من جدرانها المنخورة رائحة الصمت. وفي الأعلى، تحلّق سحابة رمادية تحت القمر، وتحجب ضوءه النحاسي عن المدينة النائمة.

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، هدير قاذفة القنابل B 52 يسمع الآن من طرف السماء الجنوبي. يختفي لحظة ثمَّ يظهر، تتذبذب شدّته مع هبوب الريح. الصوت يصبح أقوى هذه المرّة، يفرض نفسه شيئاً فشيئاً، يحيط بالليل، يقترب من المدينة، ينزل إلى الأزقّة المظلمة، يتمشّى تحت النوافذ العمي، ينظر عبر شقوق صغيرة في الأبواب الخشبية المتآكلة، يتسلّق الجدران الرطبة، تتشبّث أصابعه المتيبّسة بفصوص الملح الناتئة في الطابوق، ويثب فوق السطوح مثل شبح ضبابي. يمسك بهوائيات التلفاز المنغرسة في قلب الظلام، ويدور حولها كما تفعل راقصات التعرّي. يتوقّف فجأة، يجيل بصره الموحش في الأرجاء، لا أحد، الجميع نيام!

يجثم على ركبتيه، يبتسم بلا أسنان، ثمَّ يتسرّب إلى داخل البيوت عبر مسامات لبّاد الإسفلت.

*

تتململ نازك ذات السبعة أعوام في فراشها، تغيّر من طريقة نومها كلّ نصف دقيقة. تحاول أن تبعد عن أنفها خيطاً منفلتاً من طرف اللحاف. لكنَّ حلماً ما لم ينتهِ بعد أعاد إليها غفوتها مثلما كانت قبل نصف ساعة من الآن. رؤيا دافئة، جعلت أصابع قدميها الصغيرتين تستروح البرد خارج اللحاف. وتركت أنفاسها الدافئة تنزلق فوق شعرها الذي يستلقي مثل مساء جميل على مخدتها.

يتفطّن والدها إلى الابتسامة التي طفت على وجهها، يدرك إنّها تحلم الآن، لذا أخذ يخفض من مستوى الضوضاء التي يحدثها بقص أجزاء من الشريط اللاصق الذي كان يعالج به بعض الثقوب والفتحات في الغرفة. يستعين بدلاً عن الشريط اللاصق وأكياس البلاستك بقطع من القماش المبلّلة بالماء ليحشرها أسفل الباب وحول حواف النافذة.

بعد أن يفرغ من إغلاق الكوى والفجوات كلّها في الأبواب والشبابيك، يسحب الغطاء فوق قدمي ابنته الصغيرتين، ويتحسّس جبهتها الناعمة، ثمَّ يعود إلى طاولته عند النافذة. ينظر إلى جهاز راديو قديم نوع ناشيونال، يتفحّصه بيديه، ويقلّبه مثل شيء مهم، يقرّبه بين لحظة وأخرى من ضوء الشمعة. يحاول منذ نصف ساعة تقريباً، أن يجدَ حلاً لمشكلة الشوشرة في البث الاذاعي. يزيل بفرشاة صغيرة ذرّات الغبار عن أجزائه الداخلية، ينقر برأس إصبعه نقرة خفيفة على المضخم الإلكتروني، يكوّر شفتيه وينفخ على طبلة السمّاعة، يربط الغطاء الخلفي ويعيد البطاريات إلى مكانها. يدير المؤشّر جيئةً وذهاباً، يجرّب أن يلتقط الإشارة من بين ركام التشويش، يدني الراديو من أذنه، يقصي كلَّ صوت لا يأتي عبر السماعة. ينصت بعمق في المسافات الخالية من التشويش التي يقطعها المؤشّر بين تردّد وآخر، لكنّها فضاءات مقفرة، خالية حتّى من وشوشة الصمت. يضع الجهاز على الطاولة، يتنفّس بعمق، يستعين برشفة أو رشفتين من كوب الشاي الذي كان قد نسيه. تتجمّع برغم برودة الجو قطرات من العرق بين أخاديد جبهته، وتنحدر نحو حاجبيه اللذين تقعّرا عند قصبة أنفه. يتنقل بنظره في أرجاء الغرفة، يركّز قليلاً في لوحة تمثّل أفول الشمس خلف غابة كثيفة من أشجار النخيل مع قارب يتهادى على نهر صغير. وهناك على خزانة خشبية صغيرة يجد آلة الكمان التي لم يداعب أوتارها منذ شهور. يشيح ببصره عنها ويتوقّف عند صورة زوجته المعلّقة أمام سريره، لكنّه لم يتبيّن ابتسامتها بسبب النور الباهت للشمعة. ينزل إلى حيث تحط نظراتها، تحديداً عند ابنته النائمة مع دميتها منذ ساعات المساء الأولى. يغمض

عينيه، يسمع هسهسة الريح تبتعد في الظلام. يفتح عينيه ويغلقهما مرَّةً ثانية، يوجس أنَّ هنالك شيئاً آخر يقترب. دمدمة تتعاظم قوّتها مع مرور اللحظات، دوي سحيق يتقدّم في الفضاء، خفق جناحي طائر عملاق بحجم نيزك. أو إله منسي قد أفاق لتوّه وها هو الآن يتثاءب متململاً. تتفاقم حدّة الصوت وكأنَّه يمر عبر مدارات لولبية. يبتعد عن النافذة، يتعثّر بطرف البساط، وفجأة، تصرخ صافرات الإنذار بشكل هيستيري، صراخ حاد، عواء قاس ينتهك قداسة الهدوء في ليالي الشتاء الباردة. تنتفض نازك من مكانها مرتعدة مثل طائر وجل، تحاول أن تفهم، أن تجد تفسيراً لهذا التحوّل الصاعق بين الحقيقة والخيال، لكنَّها لم تجد أمامها غير أبيها الذي أخذها بين يديه.

تقول بصوت أقرب إلى البكاء:

- ما هذا؟

- لا تخافي، سيختفي الصوت خلال لحظات.

- توجد طائرات في السماء.

- أعرف ذلك، ولكنها بعيدة جداً عنا.

- هل بدأت الحرب؟

- سنكون في أمان هنا في البيت.

تشعر نازك بشيء من الهدوء الداخلي في كلمات أبيها، فتلوذ بالصمت. ويبحث هو عمَّا يعزّز به هذا الثبات. فيقول بصوت درامي:

- انظري إلى دميتك أنَّها مثلك تماماً قويّة لا تبكي.

تجتذب دميتها وتضمّها إلى صدرها بقوّة، وتغمض عينيها بعمق، كأنَّها تريد أن تصاب بعدوى الجمود، عدوى ذلك القصور الديناميكي المريح لدميتها، الذي يحول بينها وبين الخوف. لكن بعد دقيقة أو دقيقتين ينحسر صوت صافرات الإنذار، تستعيد نازك شيئاً من هدوئها، ترخي ذراعيها حول الدمية بطريقة آلية. ما تزال هناك دمدمة في السماء، لكن لا بأس، فلقد ابتعدت الطائرات قليلاً. يبدو أنَّها اخترقت حاجز الصوت فقط، من دون أن تقوم بأيّة غارة على هدف ما، كما وضّح لها أبوها ذلك.

- ماذا تفعل؟

- أنا أعمل على إصلاح الراديو، سنستمع معاً إلى الموسيقى هذه الليلة.

تلتجئ إلى سريرها، تركّز نظراتها نحو الشمعة الساكنة على الطاولة، حيث ينكب أبوها على عمله في إصلاح جهاز الراديو القديم. يتسرب البرد من تحت الغطاء إلى أصابعها، تلملم ساقيها، تلتفت إلى زاوية الجدار حيث توجد المدفأة، لكن لا وجود للوهج القرمزي على شبكتها المعدنية. تعرف من خلال الظلال الباردة التي تجمّعت حولها، بأنَّها قد أُطفِئت منذ ساعات. تفاجأت كذلك، عندما وجدت أنَّ أباها قد أحكم إغلاق النافذة تماماً، هو لم يعتد على فعل شيء كهذا أبداً، كان يحب الجلوس لليالي الشتاء إلى طاولته عند النافذة المفتوحة قليلاً بوجه الريح، ويستمع إلى برامجه الموسيقية المفضلة. لكنَّ ما تراه الآن أمامها يثير الريبة حقّاً: المدفأة الهامدة، النافذة الموصدة، الباب الذي حجب ببطانية تقطر ماءً، أمتار من الشريط اللاصق حول حواف الشبابيك والفتحات والثقوب، جبين والدها المتغضّن، تعرّقه في البرد القارس، صراخ صافرات الإنذار، دوي الطائرات، والريح التي تعوي في البعيد. نعم، هي تعرف أنَّ هنالك حرباً، لكنَّها لا تعرف ما الحرب.

يرتعش لهب الشمعة قليلاً، بالرغم من سكون الهواء في الغرفة، تظل تراقب انكسار الضوء على لوحة لسوق قديم، تتحرّى اللافتات الصامتة كما لو أنَّها تريد أن تعرف أنواع البضائع التي تبيعها تلك الدكاكين المغلقة، يرشح من أسفل الواجهات الحديدية عبير التوابل وروائح البخور، عندما تتذكّر أنَّ والدها قد أخبرها بأنَّ هذا السوق كان فيما مضى نسخة من أسواق بومبي قبل قرن من الآن. لكنَّها تغادر السوق الكئيب من دون أن تلتفت إليه ثانية، ترتاح بنظرها على مقعد حجري متهالك نمت على قوائمه الحشائش عند رصيف الشط، تتأمّل من هناك الركائز العائمة للجسر الحديدي الغافي على صدر الماء، ترفع رأسها قليلاً إلى سماء كانون الرمادية، تجد الأذرع البرونزية المفتولة لتماثيل الجنرالات القتلى تمتدُّ مع الأغصان الناتئة في الفراغ فتبدو مثل شرايين في جسد السحاب، تتجه بنظراتها إلى حيث يشيرون، إلَّا أنَّ النور الخافت للشمعة لا يكفي لإضاءة الضفة الأخرى، فالظلام هناك شديد.

- بابا، لماذا لا يوجد هنالك أشخاص في اللوحات؟

- أية لوحات؟

يلتفت إلى اللوحات المعلّقة على جدران الغرفة، ويهز كتفيه بالنفي:

- لا أعرف. ولكنها تبدو أجمل هكذا.

تلفُّ غطاءها حول جسدها، وتنزلق عن حافة السرير، تقترب من والدها، تلقي برأسها الصغير على كتفه. تتأمل أصابعه المتربة بعض الشيء تتنقل بين أحشاء الراديو. تفكر بالموسيقى والاصوات وآلاف الأغاني المحشوة فيه. في الأيام الماضية كانت تسهر إلى وقت متأخر من الليل كي تحظى بسماع بعض الموسيقى مع أبيها، لكنها لم تستطع ولو لمرّة واحدة أن تقاوم إلى الوقت الذي يبدأ معه بث البرنامج على

المحطة الاذاعية. تبتسم في داخلها لأنَّها اليوم تجد نفسها مستيقظة في مثل هذه الساعة من الليل، على أمل أن يفرغ والدها من إصلاح الراديو بأسرع وقت.

- ألم تنته من إصلاحه؟

- ليس بعد.

- يوم أمس كان يعمل بصورة جيدة.

- نعم، لكن هذه الليلة يوجد تشويش على البث الاذاعي، والجهاز قديم جدّاً لا يستطيع أن يلتقط الإشارة كما يجب.

- يعني لن نستمع اليوم إلى الموسيقى.

- نحن بحاجة إلى هوائي أطول، وعندها سنستقبل البث بسهولة.

- ومن أين سنأتي بمثل هذا الهوائي الآن؟

- أبقي هنا لن أتأخر.

يخرج من الغرفة مسرعاً، يغيب لحظات ثم يعود بسلك نحاسي طويل، يقضم بأسنانه أحد طرفيه، ويزيل المادة العازلة، ويفتل الشعيرات حول نفسها. بعد ذلك يزيح الغطاء الخلفي للراديو، ثم ينظر إلى المكان المخصص للهوائي الداخلي. يتردد الآن، هل يصعد إلى السطح ويربط السلك بالهوائي الحلقي المثبت في الأعلى؟ لكن ماذا لو أنَّ هناك هجوماً بالأسلحة الكيمياوية؟ يتذكّر توصيات فرق الدفاع المدني منذ أيام، ونشرة أخبار الأمس بالتحديد التي نوّهت إلى أنَّ جيش الحلفاء قد يرد بالمثل إذا ما هوجمت قطعاته العسكرية بالأسلحة الكيمياوية. يزيح الستارة قليلاً، ينظر عبر الليل، لكنَّه لا يستطيع أن يرى طيوراً أو قططاً نافقة، الظلام شديد في

الخارج. يفكّر: الهوائي أعلى السطح، يمكنني أن أحبس أنفاسي وأركض إلى هناك المسافة بينه وبين باب السطح خمسة عشر متراً. أستطيع أن أقطعها ببضعة ثوانٍ فقط، أضف إليها الثواني التي يستغرقها ربط السلك النحاسي بالهوائي، والأمتار الخمسة عشر نفسها التي سأقطعها في طريق العودة يجري عملية حسابية سريعة في ذهنه، يجد أن المهمة تحتاج إلى دقيقة كاملة، ستين ثانية فقط. يتنفس بعمق، يشعر بشيء من الراحة لسهولة المهمّة حسابياً، لكن ماذا عن باب السطح؟ إنّه لا يقفل من الخارج، ويجب أن لا يتركه مفتوحاً، قد تكون هناك غازات سامة في الجو، فهو لم يسمع منذ دقائق أيّ صوت للمدافع المضادة للطائرات. يحتاج إلى شخص آخر معه كي ينجز المهمة، لكن لا يمكن أن يجازف ويطلب من ابنته أن تصعد معه إلى أعلى الدرج. مستحيل، حتى لو لم يكن هناك تلوث كيمياوي في الهواء، فالسماء أيضاً مكتظة بأزيز الطائرات المقاتلة. هذا شيء لا يمكن أن يحدث على أية حال. لكن ما العمل؟ يفكر مجدداً، الموسيقى وحدها من تجلب الاسترخاء لرأسه، نازك هي الأخرى لا يمكنها أن تقضي الليل كلّه وهي تستمع لأصوات الانفجارات. برغم كلّ شيء، الموسيقى ستخفف من هلعها. لكن ماذا لو خرج إلى أعلى السطح وحدث مكروه ما؟ من سيبقى إلى جانب ابنته الصغيرة؟ يبتسم ويقول في نفسه "أنا أهوّل الأمر. لن يحدث شيء. سأصعد إلى أعلى السطح، وأربط السلك بالهوائي الحلقي، ثم أنزل، هذا كلّ ما في الأمر":

- سأصعد الآن إلى السطح لربط السلك بالهوائي المثبت فوق.

- سأذهب معك.

- ستبقين هنا، الجو بارد في الخارج.

- لكن..

- لن أتأخر كثيراً، صدقيني.

- ارجع بسرعة.

يضطر لإشعال عود الكبريت عند أول درجة بسبب الظلمة الشديدة المتراكمة على درجات السلم، لكن العود ينطفئ قبل أن يصل إلى الاستراحة الأولى في الطابق الأرضي. يخرج علبة الكبريت من جيبه ويشعل عوداً آخر، ينظر في داخل العلبة، ثم يرفع رأسه إلى نهاية السلم في الطابق الثاني، يشعر وكأنَّه يشاهد هذه الدرجات، التي بدت لا نهائية على الوميض الخافت، للمرّة الأولى. يتذكّر ابنته التي تجلس الآن وحدها في هذا الليل القاتم المحفوف بالكراهية. يرقى الدرجات المتبقية بأسرع ما يمكن، يجد نفسه واقفاً عند الباب الحديدي للسطح، ينفخ على عود الثقاب، وينصت قليلاً لهمهمة بعيدة تتسرب عبر الجدران، يشعر بالخوف عندما يسمع الهواء يتحرك في الخارج. من يدري ماذا تخبئ الريح في نفحاتها؟ يسحب نفساً عميقاً، ويفتح الباب ببطء. يتقدم خطوتين ويتوقف لحظات يتحسس النسيم البارد يندفع على قسمات وجهه. يقول في سره: لا بأس أنَّه الهواء نفسه. أعرفه جيداً، ورائحة الليل هي هي لم تتغير. يعتق الهواء المحبوس في رئتيه، ويفتح عينيه، ينظر إلى السماء التي بدت منخفضة جداً هذه الليلة. كتل هائلة من السحب تسير بتثاقل فوق المدينة. لكنه يتطلع باهتمام إلى الطرف الشرقي للسماء، هناك حيث يثقب القمر الغيوم بشعاع نحاسي ينحدر بشكل مائل على مركز المدينة ويضيئ الجزء الأعلى من برج الإذاعة والتلفزيون. ينتظر قليلاً ليرى الضوء الأحمر في أعلى البرج الذي يطرف في الظلمة منذ سنين، لكن يبدو أنَّ عين البرج نائمة هذا المساء. تعترض سحابة منخفضة المسار النحاسي لضوء القمر وتردم الكوّة بين الغيوم فيختفي البرج عن الأنظار. يتنبه إلى السلك النحاسي بيده، يذهب إلى سياج السطح، يربط السلك بالهوائي الحلقي ثم يدلي بالطرف الثاني منه إلى الأسفل وينزل إلى الغرفة مسرعاً. في الأسفل، يجد ابنته ما تزال مستيقظة في سريرها، تمسح على رأس دميتها.

- لقد تأخرت كثيراً.

- لم أتأخر أكثر من ثلاث دقائق فقط.

- هل سيعمل الراديو الآن؟

- لنرّ ما إذا كانت الطريقة ستنجح أم لا.

يزيح الستارة ويرفع الشريط اللاصق عن حافة النافذة، يمد يده في الفراغ مثل الأعمى ويبحث عن السلك النحاسي، يعثر عليه، يتلمسه في الظلام، ويسحبه إلى داخل الغرفة. يغلق النافذة، ويعيد الشريط اللاصق إلى مكانه. يجلس إلى طاولته، ينفخ في يديه ويدفئهما على لهب الشمعة قليلاً. يشعر بشيء من الدفء في أصابعه، ثم ينتبه إلى ابنتهِ تقف إلى جانبهِ.

- ماذا ستفعل الان؟

- سترين، انتظري.

- ثيابك باردة جداً.

- الجو شديد البرودة في الأعلى.

يزيح والدها الغطاء الخلفي للراديو، ويربط طرف السلك في المكان المخصص للهوائي الداخلي. يعيد البطاريات إلى مكانها، ويحرك المؤشر. تسمع نازك خربشة تنبعث من داخل الراديو، تهمس بحزن:

- تشويش أيضاً.

- انتظري.

يغير بين موجات الالتقاط. وفجأة يتدفّق سيل جارف من الأصوات المتسارعة، كرنفال من الموجات الكهرومغناطيسية في طريقه للتحول إلى ماراثون صوتي، لكن بلا وجهة محدّدة. حناجر تتمتم بلغات مختلفة:

"احتجاجات في العاصمة واشنطن ونيويورك".. تشويش.

"الشرطة المحلّية في القاهرة تمنع آلاف المتظاهرين من الخروج من حرم الجامع الأزهر"

"وصول قوّات إضافية إلى الخليج"

"إسرائيل تستدعي المزيد من جنود الاحتياط"

"هيجان شعبي في جاكارتا"

"فاصل صغير من النهاوند لنشرة أخبار إذاعة فارسية" تشويش.. هدير في السماء، همهمة عميقة، ارتجاج في الاثير، زوبعة في السديم تطيح بالموسيقى بعيداً. دخان يتراقص في الظلام على وقع أنين الجرحى وبكاء الأطفال. تصرخ نازك وهي تشد ذراع أبيها بقوة:

- الطائرات قادمة.

يدوّي انفجار بعيد، تغمغم الجدران حولهما، وترتجف الستارة، تتقهقر نازك إلى الوراء، يجلسها والدها إلى جنبه، ويسند ظهرها إلى ذراعه. تنظر بعينين خائفتين إلى الطاولة حيث يوشوش الراديو وتتراقص الشمعة:

- الراديو يعمل!

- نعم لقد نجحنا.

وبسكون لا إرادي يتناسيان القصف ويراقبان الراديو من مكانهما عند زاوية الجدار، بعد لحظات قليلة، تختفي الوشوشة ويأتي صوت من بين المكثّفات الصغيرة، والترانزستورات الدقيقة، والهوائي التالف. من هناك، عبر الريح، والبحار الملبّدة بالسحب والضباب، من فوق سطوح القرميد المائلة، ومداخن الأكواخ الخشبية، والسفوح الملأى بقطعان الماعز الجبلي، من هناك، يأتي صوت أنامل تعزف الرقصات المجرية ليوهانس برامز.

تبتسم نازك لشيء ما في الظلام، وتتراخى أسارير وجهها. تطبق جفنيها، لكنها تترك بينهما فسحة ضئيلة لتركز نظراتها، بل مخاوفها، على اللهب الخافت للشمعة. ينحسر العالم في مخيلتها، تتراجع الأبعاد شيئاً فشيئاً، يرتسم على جدار العتمة لوح من خشب الزان، تتشكّل فيه تباعاً مفاتيح بيانو قديم، ومن الفراغ تمتدُّ إليه أصابع موسيقي عجوز، برغم رشاقتها إلَّا أنَّها بدت متعبة بعض الشيء. ومن الوهج الراجف للشمعة يرتفع خيط رفيع من النور إلى الأعلى، شعاع آخر يبزغ في الظلام، تقلّل من الفسحة بين جفنيها، يتحرّك الشعاعان مثل ساقي راقصة باليه، يبتعد أحدهما متأرجحاً، ثمَّ يدنوان من بعض ثانية، وعندما يتشابكان يبدآن بالدوران معاً. تترقرق في عينيها قطرات صغيرة، فتومض على أطراف أهدابها كرات بلورية لامعة، أشبه بالكشافات الدائرية في مسارح الأوبرا الكبيرة، تقلّص الفسحة أكثر لإضافة المزيد من المصابيح البلورية، زرقاً، صفراً، خضراً. تزيد الأصابع من تحركاتها على مفاتيح البيانو، ويتعاظم ضرب المطارق على الأوتار المعدنية. ينبثق شعاعان آخران من الفتيل، يتعالى تصفيق الحشود، أو لعلّه صوت تساقط زخّات من الشظايا ونثار الزجاج في البعيد، ترتعش الستارة مجدّداً، وكأنَّ أحدهم يريد أن يزيحها معلناً بدء العرض. تنحني الشعلة إلى اليمين قليلاً فيلتف أحد ساقيها إلى الخارج، ثمَّ وكأنَّها تثني ركبتيها وتقوّس ذراعها الأيمن وتفلت الآخر إلى الأعلى، وتدور نصف دائرة باتجاه معاكس للزمن لتقف مرَّةً أخرى بوجه الليل. يتعالى من خلف الستارة دوي انفجار قريب، يثير الرعب في خلايا السقف، ويسلخ الطلاء عنه. يهتز

الراديو فوق الطاولة ويترنّح لهب الشمعة حتّى يكاد ينطفئ. تمرُّ فترة صمت تتخلّله رشقات بعيدة من مدافع مضادّة للطائرات. تنسحب انحناءات اللهب عن الجدار المتوجس، يتضاءل لوح مفاتيح البيانو، وتختفي أصابع الموسيقي العجوز الواحد تلو الآخر. تلمع هالة من الضوء في فضاء الغرفة، تتذكّر نازك تنوّرة التوتو المنفوشة التي صنعتها لها أمها من قماش التول الأبيض.

يزعق انفجار آخر، لكنَّ هذه المرّة، على بعد عشرات الأمتار فقط من بيتهما، يحطّم زجاج النافذة، ويطيح بالراديو بعيداً ويقتلع المسامير الصدئة من أطار الباب. تختنق الغرفة بعاصفة من الغبار وذرات الجص يعقبها رائحة دخان حاد، يزحف والد نازك إلى طرف الغرفة ويأتي بقطعة قماش مبلل كان قد تركها في وعاء أسفل الطاولة، يتحسّس وجه ابنته ويكمّمه بالمنديل المبلل. تستجمع نازك قواها وتفتح عينيها، تجد أن الشعلة قد انطفأت. تغلق عينيها ثانية، وتسمع صوت أبيها في الظلام:

- هل أنت بخير؟

- نعم.

يتلمّس طريقه ثانية فوق شظايا الزجاج، يبحث في الجوار عن شيء، ترتطم يده بالراديو، يرفعه عن الأرض، ويمسحه بطرف فانيلته، ينفخ في سماعته، ثمَّ يدير المؤشّر ببطء. يرفعه إلى أذنه، ويصغي للحظات؟ المحطة نفسها. يرفع الصوت قليلاً، فينسكب اللحن على عيني نازك مثل قطرات من ضوء بارد، يفتحهما في الظلام، يأخذهما إلى النافذة المحطّمة. تهب ريح خفيفة تزيح الستارة قليلاً، ترى هناك، في سماء بعيدة، خالية من الدخان والأشباح، أطفالا يتقافزون في الشارع، تثير انتباهها فتاة تبدو في السابعة من عمرها فقط، لكنَّها لسبب ما، لم تعد تلحق بالأطفال، وتتوقف فجأة عند باب مفتوح، تنتظر قليلاً، ثمَّ تدخل. تصعد درجات

السلم، تصل في نهايته إلى غرفة، تدفع بيدها الصغيرة باباً خشبياً ثقيلاً، تنظر إلى الداخل. تتقدّم من ماكينة الخياطة، تمسك بكتف أمها النائمة على المنضدة، ثم تزيح قماش التول الأبيض عن وجهها. تبدو بشرتها باردة في ظلام الغرفة. ترفع إبرة الماكينة بحذر، وتسحب من تحتها تنورة التوتو.

تهدأ الريح في الخارج، وتعود الستارة إلى مكانها. تتحسّس ذراع والدها، تشعر بتدفّق الدماء تحت جلده، يعزف الرجل في الراديو، الآن، الرقصة الرابعة. تغلق عينيها مجدداً. وتهمس وسط الظلام والدخان:

- بابا.

- نعم حبيبتي.

- هل شاهدت أمي؟

- نعم، لكن يبدو أنَّها نائمة.

- لم أشأ أن أوقظها.

- حسنا فعلت.

- بابا

- نعم.

- ماذا عن الحرب؟

- ما بها؟

تسكت للحظات، ثمَّ تقول بصوت خافت جدَّاً، ربَّما لم يسمعاه هما الاثنان معاً:

- هل انتهت؟

-....

*

قاذفة B52 أخرى تصل إلى سماء المدينة، يتقدّمها سرب من المقاتلات. السحابة الرمادية الضخمة تتنحى جانباً، جهة الشرق، صدر المدينة يصبح عارياً الآن، تدير النجوم ضهرها، ويرسل القمر أضواءه الكاشفة..

بيبسي
وأشباح وذرة

السينما هي أجمل احتيال في العالم

جان لوك غودار

في الأيام التي تلت الحرب، سمح لي والداي، بالذهاب إلى بيت جدي الكائن على أطراف قرية قديمة تقع شمال مدينة الزبير، كنوع من النقاهة النفسية طبعاً، بعد أوقات عصيبة عشناها داخل جدران منزلنا المتداعية، التي كانت ترش رؤوسنا بنثار الجص وقشور الطلاء كلّما زعقت طائرة في السماء، أو لعلعت قنبلة في البعيد. كان بيت جدي يقع على مقربة من القاعدة الجوية في الشعيبة، حيث كان يمكنني في السنوات الماضية، سماع أصوات الجنود وهم يهرولون نصف عراة، أيام الشتاء الباردة، أو مشاهدة الطائرات الحربية تدور في الأرجاء على ارتفاعات منخفضة؛ إلّا أنّني هذه المرّة لم أجد سوى أعمدة دخان تتصاعد هنا وهناك مثل زمرة أعاصير تتلوى في البرية البعيدة، وعدد كبير من الخوذ المعدنية التي ألقى بها الجنود في الأنحاء. شعرت حينها بخيبة أمل كبيرة ولزمت المنزل أياماً غير قليلة، لكنّني مع الوقت استعدت عافيتي شيئاً فشيئاً، وبدأت بمزاولة هوايتي في تكوين الصداقات. وقد تمكّنت خلال مدّة قصيرة جدّاً، من الحصول على عدد لا بأس به من الأصدقاء، كما يفعل الأولاد ذلك عادة وهم في سن السابعة عشر. إلّا أنّني التقيت وقتها بصديق من نوع آخر، كان يكبرني بستين سنة تقريباً، يقضي يومه أمام المنزل، جالساً على بساط قديم صنع من صوف خروف أسود. عيناه معلقتان في الأمام دائماً، ومن شفتيه المطبقتين منذ مدّة بعيدة جدّاً، يمتد غليون بحّار قديم يتصاعد منه الدخان معظم فترات النهار، وبجانبه، إلى الجدار، استندت عصا مزخرفة، ذات مقبض بهيئة رأس أفعى مدت لسانها نحو أحدهم.

كان يعيش في منزل غير بعيد عن القرية، أخفت أشجار الأثل في الساحة الأمامية، واجهته عن المارّة، سوى نافذة صغيرة في الطابق العلوي تطل على الساحة بظلمة موحشة. كان أهل القرية يطلقون عليه بيت الساحر. وقد أكدوا لي، في أكثر من مناسبة، أنَّ الرجل كان ساحراً بالفعل، وأنَّه كان يمتلك تقنيات مبتكرة في السحر، لكنّه ترك العمل بها الآن، بعد أن انقلب السحر على الساحر.

شاهدت ذات يوم فيلماً يتحدّث عن ساحر عجوز، لا أذكر اسمه الآن، وقد تأثّرت كثيراً بالفيلم، وتمنّيت في لحظة ما، لا أخفي ذلك، أن أتعلّم السحر وأصبح ساحراً كباقي السحرة في الهند أو أفريقيا. ولأسباب عديدة أقلعت عن فكرتي تلك. إلَّا أنَّ شغفي ما زال كما هو في هذا العالم الماورائي، المليء بالعفاريت والجنيات. لذا لم أشعر بالخوف أبداً عندما كنت أسمع القصص التي يتناقلها أهل القرية عن ذلك الرجل الذي ينظر دائماً إلى الأمام، بل شعرت برغبة غير مألوفة في التعرف عليه.

أتذكّر جيّداً ذلك اليوم الشتائي البارد، عندما اندفعت مع مغيب الشمس، رياح خافتة راحت معها فوانيس القرية تطرف مثل جماعة من البومات الهانئات، وبهدوء لص حذر أخذ الظلام يتسلق أسطح البيوت التي بدأت تستعد للعشاء. وعلى خط أشجار الأثل الطويل الذي يمتد في مدخل القرية استعادت العصافير والفواخت مكانها، في حين ظلت مجاميع كبيرة من طيور خطاف المخازن تحلق فوق جملون مهجور في مستودع النفط الذي لا يبعد سوى مئات من الأمتار. وخلف الدكاكين المغلقة في سوق القرية القديم سمع صوت محرّك بعيد يتقطع مع صرير لافتة كبيرة ترتج بفعل الريح وقد تهدّلت من أحد طرفيها. ولو أصغى أحدهم قليلاً لسمع بين الحين والآخر صدى قهقهات هستيرية متشنّجة لعجوز مضجرة تتهادى فوق البيوت الغافية كلّما تحرّكت تلك اللافتة الخرقاء. بعد لحظات أضاء القمر واجهات البيوت غير المطلية، وكشف عري الأغصان الميّتة في الحدائق المهجورة،

وأرسلت النوافذ ضياءً ناعساً ارتسم على الأسيجة الواطئة على هيئة مربعات صفر. وفي البعيد، هناك، خلف الأفق القرمزي الممتد بلا نهاية، كان يمكن سماع تنفّس الصحراء الأبدي والخشخشة العظيمة لسماواتها القاحلة. ومع الوقت بدأ أولاد القرية بالانصراف، واحداً تلو الآخر، مثل الكتاكيت التي تخاف الظلمة، إلى مضاجعهم التي تفوق بدفئها أحضان دجاجة غافة. فيما بقيت أنا في مكاني، جالساً تحت شجرة صفصاف هزيلة، تتساقط أوراقها فوق رأسي مع كلِّ هزّة يحدثها هبوب نسمة خافتة. ورحت أتأمّل من موقعي بيت الساحر الذي كان يرقد في ظلام مطبق. لم يقع بصري على شيء يوحي بأنَّ للحياة بقيةً فيه، كان هادئاً مثل قبر في كوكب بعيد. لكنَّني لمحت قطّاً أسود يخطو بمهل فوق السياج، وعيناه تلتمعان في الليل، ثمَّ رأيته يقفز إلى داخل الحديقة، ويختفي هناك وسط العتمة. وبعد ساعة مليئة بالنظرات التي حاولت فيها أن أكتشف الأسرار المحشوّة في فراغات المنزل، كان الوقت قد تأخّر، والهواء بات أكثر برودة، فنهضت وذهبت إلى المنزل، حاملاً معي صورة القط الأسود، وعينيه اللامعتين كأضواء سيارة نائية في طريق صحراوي أطبق عليه الليل بوحشته الموجعة.

وفيما كنت أجتاز، في طريق عودتي، عدداً من المزارع التي لم تتهيَّأ للبذار بعد، وبعض الخرائب التي تضج بالقوارض وتغزوها في فترات منتظمة بنات آوى، لمحت ظلاً يتحرّك في الجزء المظلم من الطريق. إلَّا أنَّني لم أستطع تبيّن ملامح الرجل، فالمصابيح الصفر المتدلية في واجهات البيوت التي كان يمر بها، كانت لا تكفي لإضاءة الطرف الآخر من الطريق، هناك حيث كان الرجل يطرق بعصاه. لكنَّ الأمر لم يكن يحتاج مزيداً من العناء، ففي الأخير استطعت أن أعرفه، إنَّه الساحر نفسه! كان يتحرّك بصعوبة، كما لو أنَّه كان يجرُّ وراءه كيساً أو شيئاً من هذا القبيل. لم يتملكني أيّ شعور بالخوف منه أبداً، لكنَّني مع ذلك لم أتخلَّ عن حذري اللازم، فالثقة المفرطة ليست الخيار الأنسب دائماً، لكنَّ الرجل كان يبدو متعباً، ومن المعيب على ولد بمثل قوّتي ونشاطي أن يخاف من شيخ مسن، وأن لا يقدّم له

المساعدة التي يحتاجها. ثمَّ أنَّها فرصتي في التعرّف على ساحر حقيقي يستطيع أن يعلّمني السحر، نعم، يجب ألَّا أفوّت الفرصة. دنوت منه ببطء وعرضت عليه المساعدة. وبدا عليه أنَّه كان متعباً حقّاً، لأنَّه سرعان ما وافق على العرض الذي قُدِّمَ له، من دون أن يفكّر بالأمر ولو للحظة واحدة.

تركت كيس الجنفاص يتأرجح خلف ظهري وتقدّمت عنه مسافة أخذت تتسع مع الوقت. في البداية لم أهتم لنوع الحمولة، لكن بما أنَّها بدأت تتسبّب لي ببعض النكزات كما لو أنَّها إبر حديدية صدئة، فقد بدأت أخمّن بفضول ملح محتويات الكيس عطفاً على نوع الألم الذي كانت تتركه في خاصرتي. ولكنَّ الحمل كان ثقيلاً أيضاً بما لا يدع مجالاً للشك من أن يكون مجرّد قطع غيار لآلة معيّنة، أو أجزاء صغيرة لمحرّك سيّارة قديمة، أو حتّى مجموعة كبيرة من تروس ساعات ذات أحجام عملاقة. وعلى أيّ حال، لم يكن في نيّتي أن أحمل الكيس حتّى باب بيت الساحر، فقد قررت أن أضعه على مسافة آمنة، ثمَّ أعود مسرعاً من دون أن أترك له فرصة للامساك بي. لكنَّني تذكّرت ثانيةً، أنَّها فرصتي الوحيدة.، لاسيّما أنَّني مع كلِّ خطوة بدأت أشعر تجاه الرجل بنوع من الطمأنينة. إذ لم يكن في مظهره الوديع ما يدل على أنَّه أحد السحرة الأشرار. قد يكون ساحراً حقيقياً، لكنّه في الأقل ليس شريراً. نعم ليس بالضرورة أن يكون شريراً.

وفي لحظة فكّرت فيها أن أضع الكيس لالتقاط بعض الأنفاس، بعد أن أحسست بأنَّ قواي بدأت تتقهقر، رأيت ظلّه يتداخل مع ظلّي على جانب الطريق، ثمَّ شعرت بأصابعه المتيبسة تستقر على كتفي، وتهزّه هزّة خفيفة، تبعها صوت خرج على شكل كلمات من فم فهمت أنَّه بحكم الزمن لم يعد يعرف كيف يقوم بأداء وظيفته على أحسن وجه:

- شكراً، أستطيع أن أجرّه بنفسي إلى داخل البيت.

أنزلت الكيس على الأرض بهدوء، من دون أن أحوّل بصري عنه:

- سأدخله بنفسي إلى البيت.

- ضعه عند الباب، إذا كنت لا تمانع.

فتح لي باب الحديقة، ثمَّ غاب للحظات في المنزل، بينما وقفت أنا عند الباب الخارجي حيث طرحت الكيس. نظرت من حولي في الحديقة، حيث كان المكان يطفو في العتمة. ربَّما تعمّد هو إبقاء المصابيح مطفأة حتَّى أغادر الحديقة التي لم تكن أكثر من حرش تنمو فيه نباتات الصحراء كلّها، وقد أضفت أشجار الأثل العملاقة التي كانت تحيط بها، لوناً من الكآبة العميقة بتشابك أغصانها البدائي. ورحت أختلس من مكاني بعض النظرات الحذرة حول البيت الذي كان يبدو بنوافذه المظلمة وعزلته العميقة مثل معبد قديم متهالك في عالم سفلي لا تسمع فيه غير بقايا صوت من زمن سحيق يتردّد في دهاليز مظلمة مكتظّة بالأشباح والخفافيش. فكّرت في أنَّه قد تأخّر كثيراً، فرأيت من غير اللائق أن أطيل وقوفي في الخارج، فأغلقت باب الحديقة ورائي وابتعدت، وفي رأسي حمل أثقل من كيس الساحر الذي ألقيته للتو. مشيت بضعة خطوات قبل أن يصدر باب الحديقة الحديدي صريراً مربكاً:

- انتظر

- ماذا هناك؟

وفي تلك اللحظة بالذات، لمحت القط الأسود يخرج من ظلمات الحديقة ويتقدم ببطء نحو سيده، ثم راح يلعق أصابع رجليه المغبرة، ويحك رأسه بطرف دشداشته، ويموء بصوت أقرب إلى بكاء حيوان مصاب بالخرس، وهو ينظر نحوي بطريقة غير مريحة.

- سأعقد معك صفقة.

- أي نوع من الصفقات؟

- بعض الأجهزة والمستلزمات ستساعدني في نقلها من داخل البيت إلى مكان قرب القاعدة الجوية.

- وهل أستطيع أن أعرف طبيعة تلك الأجهزة؟

- الأمر لا يدعو للقلق.

- لكن يجب أن أعرف، قبل أن أوافق.

- ستعرف في الوقت المناسب.

ثم أخرج من جيبه مبلغاً من المال، ودفعه لي:

- هذا عربون، والبقية عندما تتم عملك.

- اتفقنا.

- أراك بعد يومين.

- هل تمانع إن طلبت مساعدة أحدهم.

- لا مانع عندي، تعالا غداً، وسأترك لكما الباب مفتوحاً، ستجدانني فوق.

- اتفقنا.

لا أعرف كم من الوقت تقلّبت في فراشي تلك الليلة. فقد شعرت بأنَّني على وشك بدء مخاطرة كبيرة. لكن يبدو أنَّ الأمر يستحق أن تجازف من أجله. فالرجل يتراءى

عليه الجد مثل ملك مقبل على حرب. ولكن، ما الذي ينوي فعله عند القاعدة الجوية؟ وأيّ نوع من الأجهزة يريد أن يحمل معه إلى هناك؟ يبدو أنَّ أهل القرية كانوا على حق، لكن يظهر أنَّه أخطر من أن يكون ساحراً. وبعد ساعات من التفكير والقلق المتواصل، غفوت في وقت متأخّر من الليل حيث باغتتني الكوابيس تباعاً، وتراكضت أشباح البيت المظلم أمامي مولولة بثيابها الجنائزية، ومرّة أخرى وثب ذلك القط الأسود في رأسي مثل شيطان صغير. ولم أنهض من فراشي إلَّا على الصيحات التي كانت تأتي من الغرفة المجاورة، حيث كانت جدتي تجلس هناك لمشاهدة التلفاز طوال اليوم.

تناولت كوباً من الحليب، وبيضة لم أنتظرها لتسلق جيّداً، ثمَّ خرجت للقاء نايف ابن حارس المقبرة؛ الصديق الأنسب لأداء هذه المهمة البالغة الخطورة، فبالرغم من أنّه كان يساعد أباه في عمله كحارس في المقبرة الإنجيلية التي تقع على مقربة من القرية، إلَّا أنَّ يومه كان يتضمّن أوقات فراغ كبيرة، وأيضاً بسبب تلك الروح السندبادية التي كانت تميّزه عن الآخرين، فضلاً عن أنَّه كان يكبرني بعامين على ما أظن، وكان يميل إلى تعدد موارد دخله شأنه شأن أي رجل رأسمالي.

بدا مندهشاً عند سماعه القصة، لم يصدق في البداية أنَّني كنت على أعتاب بيت الساحر في الليلة الماضية.

- أنت؟

- نعم.

- كنت هناك في بيت الساحر؟

- لكني لم أدخل. وقفت عند باب الحديقة.

- أنت؟

- نعم أنا.

- كيف حدث هذا، لم يكلم أحداً لسنوات طويلة، ثم تأتي أنت وتقتحم عالم هذا الساحر الغريب.

- إنَّه رجل طيب، ولكنّه يبدو منشغلاً بأمر بالغ الأهمية على ما أظن.

- وهل سألته عن طبيعة الأغراض التي سنقوم بنقلها؟

- قال بأنَّني سأعرف في الغد.

- غريب.

- سنكون هناك اليوم قبل غروب الشمس.

ثمَّة جزء صغير من الشمس كان ما يزال يظهر في الأفق عندما وصلنا إلى هناك. وكانت بعض الغيوم التي اصطبغت باللون القرمزي والرمادي القاتم تندفع في السماء بفعل الرياح في الطبقات العليا. وكان البيت يستعد لآخذ رشفة جديدة من الظلمة التي أدمنها منذ سنوات طويلة. انتزعنا القفل الصدئ من سلسلة حديدية كبيرة كانت تتدلّى على البوّابة وتصدر أصوات ارتطام منتظمة كأنَّها ضرب مطارق حداد بعيدة. واجتزنا بخطوات حذرة مجاز الحديقة بسبب إبر العاقول والصبار البرّي التي علقت في ملابسنا. ثمَّ استقبلتنا برحابة بالغة عتمة شفافة أطلّت بكآبة من الطابق الأرضي. وعبر الفناء الضيق الممتد في مدخل البيت، تقدمنا خطوتين أو ثلاث قبل أن يستوقفنا باب خشبي قديم، فتح قليلاً على غرفة وضع على نافذتها لوح من الكرتون المقوّى. وقد منعنا خلو الغرفة من الدخول إليها. ثمَّ برز بشكل مفاجئ، إلى اليمين منّا، درج مظلم ضيّق وكأنَّه يشرئب بدرجاته المهدّمة إلى سماء

رملية قاحلة، انتشرت في أرجائها خرائب أزمنة بعيدة، كهياكل لقطيع من الإبل تلقّفه الطاعون مثل ذئب أسطوري في بادية مجهولة. صعدنا درجات السلّم وتوقفنا فوق في ممر قصير ينتهي بباب ينفتح على غرفة كبيرة جدّاً، أشبه ببهو طويل يتوسّطه قوس كبير يقسّم المكان إلى ردهتين منفصلتين. كان المكان ينعم بشيء من ضوء الغروب الشاحب الذي يرشح من ثقوب ضئيلة في إعلان سينمائي قديم ينسدل على شبّاك كبير مثل ستارة بالية. لكنّه كان كافياً بأن يجعلك تشعر وكأنّك تسير في بوليفار هوليود أيام الأربعينيات. أمّا الجدار الذي إلى اليمين منّا عندما دخلنا فكانت تغطيه بوسترات كبيرة لأفلام العرض الأول وملصقات دعائية وصور لمشاهير السينما. وعلى جدار آخر انتظمت عدّة رفوف خشبية ضمّت مئات من الكتب السينمائية والمجلات الفنية النادرة، والعديد من المراسلات المهمة بين مالكي دور عرض وشركات توزيع محلية، وسيناريوهات أفلام مرتبة بشكل جيّد برغم ضيق المكان وقد وضعت فوقها- كثقّالات- مجسّمات صغيرة من الجبس، أحدها تمثّل العمّة أوسكار، ومجسّم الكرة الذهبية للكولدن كلوب، فضلاً عن تمثال صغير لشارلي شابلن، لكن يبدو أنّه قد فقد عصاه في إحدى سقطاته من على الرف الخشبي حيث ما يزال يقف هناك منذ سنوات.

اضطررنا إلى خفض رؤوسنا قليلاً أسفل القوس عندما تقدّمنا إلى الردهة الأخرى لاكتشاف مقتنياتها النفيسة إذ فاجأتنا لوحات دلالية، تدلّت من الأعلى بسلاسل حديدية تتأرجح في فضاء الغرفة كأقدام المشنوقين، كانت تشير بحروف إنكليزية برّاقة لكبرى شركات الإنتاج السينمائي في العالم: وارنر برذرز، كولمبيا بيكتشرز، مترو غولدن ماير، ويونيفرسال. لم نشعر بأنّنا دخلنا ردهة أخرى لأنّها كانت أيضاً مكتظّة بكلّ ما يتعلّق بالسينما وعالم صناعة الأفلام. العشرات من مكائن عرض الأفلام التي تعود لحقب بعيدة من بدايات القرن، ولماركات عالمية عريقة، لا أعرف كيف استطاع أن يقتني هذا العدد الكبير منها، ثمَّ من أين جاء بالمال اللازم لشرائها. كانت هناك واحدة قديمة جدّاً مدوّن عليها بحروف ناتئة اسم شركة ايستمان

كوداك الأمريكية، وأخرى من طراز كومونت الفرنسية، وثلاث مكائن يابانية نوع بورتبل، فضلاً عن مكائن أخرى يقدّر عددها بالعشرات كان قد غطّاها بشراشف بيض، حتَّى بدت أشبه بمستودع مهجور لإحدى شركات الإنتاج السينمائي.

- ما كل هذه الفوضى؟

قال نايف وهو لا يستطيع أن يغلق فمه ولو قليلاً من شدّة تأثّره بسحر المكان وغرابته:

- انتظر قليلاً

- ما هذا المكان؟

- يبدو أنَّنا في مشهد من فيلم قديم

- ماذا تقصد؟

- هذا الرجل معجزة!

- إنَّها أشبه بسينما.

- إنَّها سينما حقيقية. لا، ليست سينما، إنَّها أعظم من أن تكون مجرّد سينما، يمكن القول إنَّها شركة إنتاج سينمائي.

- من أين جاء بهذه الأشياء كلّها؟

- إنَّها هوليود مصغرة.

- لقد مرَّ وقت طويل على دخولي السينما آخر مرّة.

- تستطيع الآن أن تغمض عينيك وتشاهد فيلمك المفضّل.

قلت ذلك وقد شعرت بظلاله تتحرك من ورائنا وقبل أن التفت نحوه، سمعناه يقول:

- غداً سيكون باستطاعتكما أن تشاهدا أفضل سينما على الإطلاق. غداً بعد أن تنتهيا من عملكما، لكن ليس هنا، بل في مكان مختلف جدّاً.

- كنّا نبحث عنك، ظننت أنَّك قلت ستجدانني في الأعلى.

- نعم، هذا هو مكاني المفضل.

- إنَّه مكان جميل.

- اجلسا هنا...

وأشار نحو أريكة خشبية قديمة، بعد أن رفع عنها صندوقاً يحتوي على مجموعة كبيرة من أشرطة الفيديو وعلبة كرتونية صغيرة لمواد فلمية أصلية.

- اسمعاني جيّداً. أريد منكما أن تساعداني في نقل جزء من هذه الأغراض إلى مكان ما، قرب القاعدة الجوية.

- ولماذا ننقلها إلى هناك؟ قلت إنَّك ستخبرنا في الوقت المناسب.

- هذا صحيح. سأخبركما الآن بكل شيء.

اتجه إلى النافذة وأزاح قليلاً البوستر الدعائي ونظر إلى البرية الممتدّة أمام بيته حيث تتشرّب أشباح الليل آخر قطرة من ضوء الشفق الأبيض. ثمَّ قال:

- سنقوم بنقل هذه المواد إلى مبنى قديم بني قبل حوالي قرن من الآن. إنَّه دار سينما تاريخي.

أعاد البوستر إلى مكانه وأضاء المصباح، ثم اقترب من منضدة دائرية، عرضت عليها بعض الصور تحت زجاجة يعلوها الغبار، وقال وهو يمسح بأصابعه فوق صورة لضابط إنكليزي:

- كنت في السابعة عشر من عمري، عندما دخل أحد المنتجين الإنكليز إلى مكتب حبيب الملاك، إذ كنت في ذلك الوقت أقوم بعدّة أعمال متنقّلاً بين دور السينما وشركات التوزيع التي كان يمتلكها أو حتَّى مكتبه الخاص في البصرة. كنت مولعاً بصناعة الأفلام وكلّ ما يخص هذا العالم الممتع. وقد رآني ذلك الإنكليزي وأنا أقوم بالصيانة الدورية لآلات عرض الأفلام. أتذكّر أنّه نادى عليَّ باسمي عندما خرج من المكتب، وأخبرني بأنَّني سأذهب معه للعمل في سينما أسترا التابعة للقوات الملكية البريطانية في قاعدة الشعيبة الجوية، وقد شرح لي الأستاذ حبيب الملاك بأنَّه سيقوم بإغلاق مكتبه وتسريح بعض العمال، وقد اقترح على الرجل الإنكليزي أن يجد لي عملاً في سينما أسترا. وفي اليوم التالي حزمت أغراضي وذهبت إلى القاعدة الجوية، وبدأت عملي منذ الساعة الأولى التي وصلت بها إلى هناك. لم تكن ذات مقاعد جلديّة فاخرة، ولم يكن فيها شبّاك تذاكر، كانت في الهواء الطلق، إذ لم تكن هناك حاجة لأن يطفئ أحدهم الإضاءة عند عرض الفيلم، فالليل كان يتكفّل وحده بذلك. كنَّا نعرض فيلماً كلَّ مساء، لكن في أيام أخرى عندما تكون هناك مناسبة أو حدث ما، نقوم بتمديد ساعات العرض. كان الجنود الإنكليز يأتون منهكين من عملهم في برنامج الإعارة والتأجير، إذ كانوا يقومون بإفراغ آلاف الأطنان من المساعدات التي تصل إلى مينائي المعقل وعبّادان ومن ثمَّ ليتمَّ شحنها برّاً إلى الاتحاد السوفيتي لمواجهة الزحف النازي على حدود ستالينغراد. لكنَّي كنت أشاهد هؤلاء الجنود وهم يضعون ذلك التعب جانباً عندما يجلسون في المساء لمشاهدة فيلم

الليلة. كانوا بعمري تقريباً ولم يكونوا سيئين على الإطلاق، أستطيع أن أؤكّد لكما ذلك. بدأت عملي كعامل خدمات، أقوم بتنظيف المقاعد في ساعات ما بعد الظهيرة، وأرشُّ الأرض المتربة بالماء، ثمَّ أقوم بتكسير قوالب الثلج التي تصلني وأفرغها في حافظات فلينية مليئة بزجاجات البيبسي، آه، أتذكّر كم كان رائعاً مذاق البيبسي تلك الأيام. وأقوم بعد ذلك بتهيئة الذرة قبل توزيعها ساخنة ومملّحة في أثناء العرض. وحدث ذات يوم أن أصيب مشغّل الأفلام الرئيس بنوع من الكآبة الحادّة، ولم تمر سوى أيام قليلة حتَّى وجدناه يتأرجح مشنوقاً على جدار السينما، فعهد إليَّ بإشغال مكانه في مقصورة العرض. وانقضت السنوات سريعة وأنا أعرض الأفلام من ذلك المكان المرتفع حيث كان يمكنني أن أتخيّل وأنا جالس في الخلف التعبيرات المرتسمة على وجوههم عندما كانوا يأكلون الذرّة المملّحة جيّداً، أو يرفعون زجاجات البيبسي الباردة إلى الأعلى كما لو كانوا يتناولون البيرة في عشيّة الميلاد. لم تكن تصلنا أفلام من قائمة الأوسكار، إلَّا أنَّ ما نعرضه لم يكن سيّئاً على الإطلاق. لقد قمت ذات مرّة بمراسلة شركة حكمت فرنسيس لتوزيع الأفلام في بغداد وطلبت منهم أن يرسلوا لنا فيلم "الرجال يفضّلون الشقراوات" بعد إلحاح كبير من معظم جنود الكتيبة. لكنَّ الشركة بدلاً من ذلك أرسلوا لنا فيلم "سابرينا" لأودري هيبورن الرائعة. عرضنا الفيلم في اليوم التالي. وقد بدوا مندهشين للرقة الفائقة التي تتمتّع بها تلك المخلوقة العجيبة وكأنَّها دمية من الشوكولاتة البيضاء. إلَّا أنَّهم كانوا يتمنّون مشاهدة مارلين مونرو إذ كانت تبدو جامحة وأكثر إثارة برغم أنّني كنت أفضّل أودري لأنَّها بكل بساطة أشبه برشّة خفيفة من عطر فاخر.

أخرج علبة الكبريت وأشعل غليونه الذي يشبه مدخنة سفينة قديمة، وراح يرسل الدخان نحو النافذة التي فتحها قليلاً أمام الليل حيث لاحت مشاعل الغاز في مصفى الشعيبة مثل شمعدانات عملاقة في معبد مجوسي. ثمَّ قال:

- وذات يوم وصلني من أحد الأصدقاء في بغداد فيلم "الرجال يفضّلون الشقراوات"، ولكنَّ الوقت كان قد تأخّر كثيراً، فقد غادر الجنود إلى الأبد، ولم يعد هناك سبب لوجودي في السينما، فتمَّ تسريحي من العمل، ولكنَّني حملت معي جزءاً من أجهزة وأرشيف السينما كما ترون. انظرا حولكما، الأجهزة كلّها ما تزال بحال جيّدة، وكذلك الأرشيف وبكرات الأفلام، كلّ شيء، كلّ شيء. والآن وبعد أن انتهت الحرب، فقد شعرت فجأة برغبة ملحّة في أن أعود إلى مكاني القديم، وأن أقضي هناك بعض الوقت. لم لا، لديَّ كلّ شيء هنا كما تلاحظون، إنَّها سينما متكاملة، وبإمكاني أن أعيد تركيبها في أيّة لحظة.

التفت نايف نحوي بثمالة، ثمَّ نظر إلى العجوز السينمائي، وقال:

- لكن كيف سنحمل هذه الأغراض كلّها؟

أطلق الرجل من فمه حلقات من الدخان كما يفعل السحرة في المسلسلات الكرتونية:

- هذا ما دعاني لطلب المساعدة منكما.

- يبدو أنَّ الأمر بغاية الصعوبة ويتطلّب الكثير من الجهد.

حاولت أن أتدخّل بعد أن التمعت في خاطري فكرة، فقاطعت نايف قائلاً:

- ألم تقل إنَّ والدك كان يملك جرّاراً زراعيّاً قبل أن يترك العمل في المزرعة؟

- نعم، لكن لا أظن أنّه يعمل الان.

- من يدري، ربَّما ما يزال يعمل فتلك المحرّكات صنعت لتعمل مائة سنة من دون أن يصيبها عطل ما.

- لنذهب ونلقي نظرة.

بعد ساعات من الإدامة وتشحيم أجزاء المحرّك واستبدال القطع التالفة بقطع غيار جديدة، وإضافة بعض الوقود مع قليل من الدعوات، عاد الجرّار التشيكي يعمل من جديد. وعند الواحدة إلّا عشر دقائق، من اليوم التالي، كان الجرّار يهدر تحت السماء الغائمة مثل عربة قطار تائهة. وعند الواحدة تماماً توقّف عند بيت الساحر الذي خرج مذعوراً من الضجّة التي أحدثها هذا الجرّار الأسطوري.

بدأنا في الحال بإخراج الحمولة من البيت وصفها في العربة الخلفية، ولم يستغرق الأمر منّا أكثر من نصف ساعة. بعدها بدقائق قليلة وصلنا إلى بقعة قريبة من القاعدة الجوّية المهجورة، وتوقّفنا أمام جدار حجري قديم متهالك ينتصب في البرية الموحشة كبقايا سور قلعة أثرية، وتحسّسنا بأرجلنا الأرضية الحجرية التي ما تزال متماسكة بعض الشيء تحت غطاء كثيف من الخبيز والعاقول.

كان المكان بحاجة إلى حملة من التنظيف، وفي الحال قمنا بكنس أرضية الصالة ومسح جدار شاشة العرض ما أمكننا ذلك. وحتّى لا يبدو المكان بدائيّاً أكثر ممَّا هو عليه، بدأنا بقلع النباتات البرّية التي ظهرت من بين شقوق الطابوق، أو تلك التي تدلّت مثل أفاعٍ شوكية في الفجوات الصغيرة التي أحدثت في جدار الشاشة إثر بعض الشظايا التي جاءت من حروب متباعدة. ثمَّ تكفّلت الطبيعة بإكمال المهمّة على أحسن وجه، عندما اندفعت هبّات قويّة من الريح وكنست بقايا ذرّات الغبار العالقة في تجاعيد الجدار. لتنزل بعدها قطرات خفيفة من المطر، وتحسّباً لأيّ طارئ أدخلنا الأجهزة بسرعة تحت سقف مقصورة العرض الذي ما يزال بحالة جيّدة. لكنَّ المطر كان قد توقّف، وعبقت في الجو رائحة غريبة، تلك الرائحة التي تفوح من الأبنية العتيقة عندما تأخذ حمّاماً في الهواء الطلق.

لم ننتبه للمشغل العجوز أوّل الأمر، إلَّا بعد أن سمعناه يتمتم بلحن أغنية أجنبية، وهو يرسل بين مدّة وأخرى نفثات حزينة من دخان غليونه العاجي مصحوبة بتنهدات عميقة. كان يمشي إلى جوار شاشة العرض، وهو يمس بأطراف أصابعه المهزولة جدارها الأملس مثل أعمى يتفحّص بيديه المرتعشتين ملامح أحبّته بعد فراق طويل.

قمنا بترتيب الكراسي التي جئنا بها، وغرسنا خلف كلّ كرسي قصبة طويلة، وعلّقنا فوق كلّ قصبة خوذة عسكرية، كنّا قد جمعنا ثلاثين خوذة في الطريق المؤدّي إلى معسكرات التدريب حيث كانت تنتشر هناك، بعد أن ألقى بها الجنود في أثناء الهجوم البرّي. وكان هو يراقب المشهد من مقصورة العرض والدهشة بادية على وجهه الذي صار أكثر شيخوخة من قبل. ثمَّ جئنا بقطعة من القماش الأبيض وثبّتنا طرفيها على جدار الشاشة بارتفاع خمسة أمتار. قبل أن نذهب لمساعدته في ترتيب وضعية ماكينة العرض في المقصورة. وبعد أن فرغنا من كلِّ شيء، بدأنا بتوزيع زجاجات البيبسي وأكواب الفشار المملّح على أشباح الجنود الموتى الذين بدؤوا يستعدّون لمشاهدة فيلم شبّاك التذاكر لهذا الأسبوع.

أخذنا استراحة قصيرة لتناول طعام الغداء الذي أعدّه لنا السينمائي العجوز في بيته، ولكنّه رفض أن يجلس معنا ولو لثانية واحدة، إذ كان يبدو منشغلاً بعمل عقدة في حبل متين جاء به من المنزل، ولا أخفي القول بأنَّني ارتبت كثيراً بأمر ذلك الحبل. ثمَّ أخذ بعد ذلك يتنقّل هنا وهناك كما لو كان في عرض حقيقي، وتخطّى المقاعد إلى الأمام، ووضع يده على خوذة المقعد الأول من الطرف اليمين، وانحنى قليلاً وكأنَّه ينظر في الوجه المتخيّل تحت الخوذة، وربّت عليها بهدوء وابتسم بحزن، وقال من دون أن يلتفت نحونا:

- هنا كان يجلس سكوت والتر الطبيب الذي أنقذ حياتي ذات مرّة.

ترك الطبيب وتقدّم إلى المقعد الذي بجانبه وانحنى أمام الفراغ الشاحب تحت الخوذة:

- ماذا عن هذا؟ لابدَّ أن يكون عبد الإله الداغستاني الضابط المسؤول عن الطيارين العراقيين المتدربين ضمن سرب القوّات الجوية الملكية.

ثمَّ انتقل بخفّة بين الكراسي إلى الصفوف الخلفية وراح يردّد أسماء الوجوه المفترضة في فراغات الخوذ:

- هذا ساوثغيت البدين، الذي اعتاد على أكل الأطباق العراقية الدسمة، وهنا منسّق وزارة الدفاع النقيب صهيب الأورفلي وخلفه بالتحديد سائقه محمود الكردي.

ثمَّ قفز إلى الصف الأخير:

- لقد كانوا قريبين مني، أتذكّرهم جيّداً، كانوا ما يزالون صغاراً لم يبلغوا العشرين حتَّى. هذا أريك ماكارتي، وإلى يساره كان يجلس دائماً نيكي رايت قائد الجوقة، وهناك خلفهما أعضاء الفرقة، ألن هارت، جورج بات، جوني مارتن، فيليب هندرسون، راسل بيل، ستيفن جونز، ويلسن آدمز، روبرت مان، تود كريكسون، والكابتن لونكريك.

وبعد أن فرغ من إلقاء التحيّة على الجميع، لفَّ الحبل على ساعده، ورفع الكرسي الأخير وجرّه إلى داخل المقصورة:

- يبدو أنَّ أحدهم قد تخلّف عن الحضور، سأحتاج إلى الكرسي في الداخل.

أغلق الباب وراءه، وراح يتطلّع من الزجاج المهشّم إلى جدار الشاشة. ويبدو أنَّ طبقات كثيفة من السحب السود قد تجمّعت في الأعلى، وتسبّبت في حجب الرؤية

قليلاً، مع أنَّ الوقت كان في حدود الرابعة والنصف عصراً. ابتسم العجوز وهو يدير بصره في الجوار وكأنَّ أحدهم هناك قد أطفأ الأضواء ليبدأ العرض بعد قليل. ومع تفاقم الظلام انعكست التماعات قرمزية من مشاعل المصفى على جدار الشاشة، وصدحت موسيقى جاز بنغم بدوي ألقت بها ريح باردة هبّت من أعماق القفار الغائمة. ثمَّ ظهرت على طابوق الجدار أذرع مفتولة لرجال يلبسون الأبيض مثل أموات يؤدّون رقصتهم الأخيرة ويتلقّفون جسد مارلين مونرو البض كما لو كانت آخر الحور.

بدأ بعض الرذاذ يتساقط على وجهينا عندما نظرنا إلى السماء الملبّدة. فالتفت إليَّ حارس المقبرة الصغير وقال:

- سيكون من الصعب السير بهذا الجرار الثقيل في مثل هذا الطريق الوعر إذا ما نزل المطر ثانيةً.

- نعم

- لقد تأخّرنا

- هل سنتركه وحيداً هنا؟

- لندعه هنا في عالمه.

- ماذا عن الحبل؟

- لنذهب قبل أن يعلم والدي بأمر الجرّار.

ركضنا نحو الجرّار بسرعة، عندما التمع برق بعيد في الأفق الداكن، وقد بدأت قطرات كبيرة من المطر بالنزول في أكواب الفشار التي أصبحت مثلّجة من شدّة

البرد، وطفحت رغوة سوداء دبقة من رقبات زجاجات البيبسي الممشوقة، وسالت على بلاط صالة العرض الموحلة، وتشرّبت بالطين العالق بجزمات أشباح الجنود الموتى. قفزت من الخلف إلى داخل العربة، وقد عثرت على خوذة كنّا قد أهملنا وجودها. سررت بالخوذة كثيراً، وأفرغتها من مياه الأمطار التي تجمّعت فيها، ثمَّ تركتها تستقر فوق رأسي مثل أيّ جندي متعب. ورحت أتطلع إلى العجوز السينمائي وهو جالس خلف الزجاج المهشّم ونظراته تتركّز بإمعان نحو جدار الشاشة وكأنَّه بدأ بالفعل بتشغيل فيلم شبّاك التذاكر لهذا الأسبوع، مع ابتسامة حزينة تتفطّر على ملامح وجهه المتعب. وقد راودني شعور حزين وقلق حيال السعادة المربكة التي تعتريه الآن داخل مقصورته. ابتعد بنا الجرّار كثيراً، ولم يعد يمكنني رؤية ابتسامته الجادّة وهو يشاهد مع جنوده الموتى جين راسل ومارلين مونرو ترقصان بالأحمر هناك على جدار شاشة العرض المهدّم، الذي بدأ هو الآخر بالاختفاء شيئاً فشيئاً خلف ستارة المطر.

الضباب فوق النهر

المعرفة تقتل، إنَّ الضباب هو ما يجعل الأشياء تبدو ساحرة

أوسكار وايلد

كان المطر ينزل بهدوء في الخارج، عندما أطفأت الأم أضواء البيت، بعد أن تأكّدت بنفسها من إغلاق الأبواب والشبابيك والفتحات السرية كلّها التي تقود إلى متاهات النخيل الممتدة وراء البيت، وحتَّى مشارف قصر الأطرقجي، الذي كان يطلُّ على مياه شط العرب بشرفاته المعرّشة باللبلاب، وبنوافذه المقوّسة مثل قصور بني العباس. لكن كان عليها، أيضاً، أن تترك بعض النور الخافت يتسرّب من فانوس قديم يتدلّى من زاوية ما في جدار الحوش، حتَّى لا يشعر الصغار بالخوف، ففي البرد تحتشد الجنّيات أسفل الشبابيك المظلمة. كما سمع الصغيران جدتهما تقول لهما ذلك، ذات يوم، قبل أن تنقطع زيارتها المتكرّرة إلى الأبد.

ليست وحدها الجدة التي افتقدها الأولاد في المنزل، فالأب هو الآخر لم يرجع من سفره بعد. ولقد انقضت تسعة أشهر منذ أن صعد على متن سفينة الصيد المبحرة إلى سواحل بحر عمان، لكن يبدو أنَّ السفينة قد ضلّت طريقها هناك، أو تكون قد فضّلت وجهة أخرى لرحلتها الأخيرة، ثمَّ جنحت ببحّارتها المجهدين إلى جزيرة نائية. وكانت الأم كلّما انسلت تحت غطائها وأغمضت عينيها، ترى سفينة الصيد عالقة في بحر وحلي، وقد غزتها الديدان والعوالق والصدفيات المتطفّلة، ونبتت حولها أشجار الأيكة والمانغروف، مثل لحية إله معتوه، وزعقت فوق صواريها المائلة الغربان والنوارس المتوحشة.

توقّفت التكتكة الخافتة التي يحدثها السقوط الرتيب لقطرات المطر فوق لبدات السعف الكث، وأنصت الصغيران لهبّة ريح باردة عبرت البساتين الهاجعة، وداعبت أشرعة السفن الميتة، وأطفأت، بخبث عجوز شريرة، القناديل المتأرجحة في مرافئ الصيادين. وعندما ابتعدت الريح، وسكنت الأصوات في الأجمات المعتمة، تناهى صوت محرّك باخرة يهدر مثل قطار ثقيل، ومويجات حانقة ترتطم بالضفّة الحجرية للشط وتخدش سكون الحلفاء والبردي في الشاخات التي تنسلُّ بصمت في ظلمات الطين والليل.

همس الأخ الأكبر وهو يطل بعينيه من تحت لحافه:

- وصلت باخرة أخرى.

أجابت الأخت الصغرى من دون أن تحرّك نظرها عن شعلة الفانوس المرتجفة في البرد:

- نعم أسمعها.

- أخفضي صوتك.

- لقد نامت الآن.

- صار نومها خفيفاً.

- نعم، منذ أن غاب أبي.

أطلق البوق الفولاذي المثبت أعلى الباخرة تحية الوصول، ولغطت الأشجار المطلة على الشط بهمهمة سرت بين الاغصان المثقلة بالطيور والعصافير التي غيّرت بوجل غريزي من أماكنها، وكأنَّها تريد أن تطمئنَّ لخلوِّ الفراغات التي بينها. وتململت

الأم في فراشها المحفوف برائحة البرد المكدّس في الأضلاع، وسحبت أطراف اللحاف حول جسدها وكأنَّها تريد لململة فتات الدفء المتناثر بين ثناياه.

- أراهنك أنَّها محمّلة بالموز الهندي

- لا، إنَّها باخرة ركاب

- وكيف عرفت؟

- لأنَّها لا تصدر ضجيجاً

- هل أحصيت عدد البواخر التي صعدت الليلة في شط العرب؟

- لا

- بالأمس أحصيت أنا سبع عشرة باخرة

- هل أخبرتك بأني اليوم تحدثت مع ابن صاحب القصر؟

- ماذا أراد منك؟

- قال بأنَّه سيجد لي عملاً يناسب عمري، ما دام أبي لم يرجع من سفره بعد.

- وأين ستعمل؟

- في القصر نفسه.

- أتساءل كيف يبدو القصر من الداخل؟

همست الأخت الصغرى من تحت بطانيتها وهي تنظر جهة الفانوس الذي يرسل ضوءه النحاسي الذي يزداد خفوتاً في ليالي كانون الباردة، وقد ارتعشت شعلته قليلاً

بفعل نسمة من الريح نفذت من شق ما في البيت، كانت الأم الشابة تجهد للعثور عليه طوال أيام الشتاء.

- لقد كنت هناك، لكنّني لم أدخل إلى القصر بعد، لقد أمضيت يومي في الحديقة.

- وهل رأيت البواخر وهي تمر في مياه الشط من أمام شرفات القصر؟

- رأيت عدداً قليلاً من البواخر، إلَّا أنَّها، عادةً، تكثر في المساء.

- بالتأكيد أنَّ المنظر جميل هناك

- هل تريدين الذهاب معي غداً؟

- نعم سأساعدك في عملك الجديد.

قاطعهما صوت بوق باخرة بعيدة، يبدو أنَّها تجاوزت القرية، لكنَّها تذكّرت وألقت تحية مساء أخرى، وقد ردّت عليها ديوك القرى الغافية، بصيحات متعاقبة حتى ابتعد هدير الباخرة في الظلمات الصامتة. قالت وهي تنظر إلى جانب وجهه المضاء قليلاً بضوء الفانوس:

- إنَّها باخرة ركاب.

- لقد رأيتهم اليوم يمرون من أمام الحديقة المواجهة للشط، كانوا يلتقطون الصور على سطح الباخرة، وعندما أصبحت في نظرهم لوحوا لي بأيديهم.

- من أي بلد تعتقد قد جاؤوا؟

- لقد رأيت العلم الذي تحمله الباخرة، لكني لم أعرفه، يبدو أنَّهم جميعاً من الأجانب، كانت وجوههم تلمع في الشمس.

- أريد أن أشاهدهم يمرون من أمامي.

- غداً ستمر باخرة ركّاب أخرى وسترينها بنفسك.

- اتفقنا، سأنام الآن.

حاولت أمينة أن تنام بسرعة. وقد قضت، فيما بعد، جزءاً من نومها وهي تتمتم بشيء ما. ربَّما كانت تحلم بالقصر، نعم، هذا مؤكّد؛ لأنَّها في اليوم التالي عندما وصلا عصراً إلى القصر، بعد أن أحدثا شقّاً في سياج الخوص الذي يحيط بالبساتين الممتدة وراء القصر ووقفا بجسديهما الصغيرين أمام النوافذ الخشبية العالية المصنوعة من خشب الزان، لم تتفاجأ كثيراً، وعندما التفت إليها أخوها متعجّباً من ردّة فعلها الباردة، نظرت إليه وقالت:

- تماما كما كنت أراه في أحلامي، إنَّه القصر نفسه، ولكنّه أكبر ممَّا كنت أتخيّل.

- إنَّه كبير جداً

- كم يستوعب من الأشخاص؟

- يبدو مثل فندق كبير

بقيا هناك في الحديقة الخلفية للقصر قرابة الساعة ينتظران ابن صاحب القصر، كانت أمينة تلف جسدها الصغير بجاكيت قديم من الصوف، كانت جدتها تلقيه فوق كتفيها كلّما أتت لزيارتهم أيام الشتاء، عندما يكون الأب النوخذة غائباً على متن سفينة الصيد. كان الهواء البارد يجلد خدّيها المحمرين برغم سمرتها الجنوبية الخالصة، وكانت بين مدّة وأخرى ترفع يديها إلى فمها وتنفث فيهما، مثل أيّة مدخنة سفينة عتيقة، بخاراً ساخناً يذيب للحظات الدم المتجمّد في عروقها الناتئة. وبعد لحظات من الترقّب المثلج، وصلت سيّارة الأستاذ يعقوب الشيفروليه

طراز 65، ودخل إلى حديقة القصر المظلّلة بعرائش الكروم والجهنمي، والمسيجة بشجيرات الياس والرازقي. وقاد الصغيرين إلى باحة مستطيلة تنتهي بدرجات من الآجر تنزل إلى مياه الشط، وترسو على جانبيها زوارق صيد قديمة، مشدودة بحبال متينة لفت حول جذوع الأشجار.

جلسوا على أريكة من الخشب مغطاة بقطعة من الصوف الطبيعي. وتنهد الأستاذ وهو يخرج علبة السجائر من جيب بنطاله. أشعل سيجارته وتطلّع إلى المياه المتلألئة، ونفث دخانه إلى أعلى، ثم قال:

- اتخذت العائلة قرارها بالسفر إلى الخارج، وبالتأكيد لم نجد أفضل منك للاهتمام بالبيت. أعمال سهلة، لن تتعبك كثيراً، كلّ يومين أو ثلاثة، كسقي المزروعات، ونفض الغبار في مكتبة والدي، وتفقّد بعض الأمور الأخرى التي كتبتها في هذه الورقة. وسيكون لك راتب مثل الذي كان يتقاضاه والدك.

- شكراً لك.

- في هذه الورقة بعض الملاحظات وهذه نسخ من مفاتيح البيت، احتفظ بها.

- هل يوجد في البيت أشياء ثمينة، فقد يأتي أحدهم للسرقة اذا علم بخلو المكان من أهله.

- لا توجد مجوهرات أو أموال، فقط قطع الأثاث، ولكنّها غالية الثمن أيضاً، لكن لا يوجد شيء يمكن حمله بسهولة. وبخصوص الكهرباء لقد قمت بفصلها عن المنزل، هناك فوانيس وشموع كثيرة، استخدمها إذا احتجت إليها.

- ومتى سأبدأ بالعمل؟

- يمكنك أن تأتي في الوقت الذي تحدّده أنت، بعد أن تنتهي من أعمال بيتك.

سكت فترة، ثمَّ أخرج من جيب سترته مغلّفاً، وقال:

- هذا المال لأبيك. كنت احتفظ بجزء من راتبه من باب التوفير.

ثمَّ نهض، ونفض رماد سيجارته في النهر، وغادر القصر للمرّة الأخيرة. وحاولت أمينة أن تثبت خصلة من شعرها داهمتها الريح فجأة، وهي تصغي لهدير محرك السيارة تتشرّبه المسافات. ثم تنبهت لخشخشة أوراق الشجر اليابسة التي تكسّرت تحت أقدام أخيها عندما تقدّم وهو يمسك بمفاتيح القصر مثل أيّة فاتح. نحو البوّابة الخشبية الثقيلة المطعمة بالنحاس وشرائط الجلد، التي أطلقت صريراً كئيباً تردد ببطء في فراغات القصر المهجور.

- البرد هنا شديد.

- كيف يمكن تدفئة هذا المكان الواسع.

- سنتجمّد من البرد.

قالت أمينة ذلك وقد تقدمت بهدوء بقدميها الصغيرتين، مثل حمامة حذرة، وراحت تمس بأطراف أصابعها المتيبسة من ظلال المساء الباردة، النقوش الناتئة على خشب الجدران، وتشم بأنفها المزكوم، ذرات الغبار العالقة بالستائر المخملية التي تنسدل على نوافذ القصر مثل أجنحة بجعات بيض. فيما ابتعد أخوها نحو الجدار الذي يقابل النافذتين المقوستين، حيث انتصب هناك موقد جداري، شيد بالطابوق الأحمر على الطراز الإنكليزي، وتصعد منه إلى أعلى السطح مدخنة كبيرة، ترسل الدخان أيام الشتاء. وعلى الرف الحجري للموقد تنقلت أصابع سعدي، وعد بضعة شمعدانات تلتقي من الأسفل بمحمل واحد، وامتدت منها سبعة أعمدة متينة من الشمع الأبيض التي لم تستعمل من قبل.

- ما هذا؟

همست أخته وهي تنظر من فوق كتفه بعينين ذاهلتين.

- إنَّه شمعدان.

- شكله غريب.

- نعم

- هل هو من الذهب؟

- يبدو من النحاس.

- بعد دقائق سيكون القصر مظلماً جدّاً.

فهم سعدي إشارتها، وفي الحال، أخرج من جيبه علبة كبريت، وبدأ بإيقاد أعمدة الشموع السبعة، ومع كل شمعة تشتعل كان يظهر هناك شبح من الظلال المرتجفة على جدران البهو الخشبية. تعقبا أثر الأشباح السبعة على درجات السلم الخشبي الذي يتوسط البهو الكبير، حيث كانت الغرف في الأعلى تتوزع على جانبي رواق واسع بعض الشيء مفروش ببساط مخطط، لكنَّ أغلب الغرف كانت فارغة، فقط غرفتان أو ثلاث كانت تبدو أنَّها مأهولة منذ مدّة ليس بالبعيدة.

- إنَّها مكتبة. مكتبة العم يعقوب.

وأطلّت أمينة برأسها الصغير من باب المكتبة التي عبقت برائحة الجلد القديم والحبر الإنكليزي الفاخر. ثم دخلا المكتبة ببطء كما لو كانا يسيران في مكان يغصُّ بالمومياوات. ثمَّ أشعل سعدي اللمبة التي تستقر قرب جهاز الفونوغراف القديم، حيث كانت تظهر تحت الإبرة أسطوانة قديمة لصقت فوقها صورة جميلة لفرانك

سيناترا، وأسطوانات أخرى كانت مرتبة على المنضدة لناظم الغزالي وعبد الوهاب وبريسلي. تفحصت أمينة بنظراتها السماعة الكبيرة من الداخل كما لو أنَّها تمدُّ رأسها داخل أذن فيل. وقالت:

- هل تعرف كيف يعمل؟

- لا أدري، لم يسبق لي أن رأيت هذا الجهاز عن قرب.

- ما اسم هذا المغني؟

- لا أعرفه.

- يبدو أجنبياً، لم لا تجرب

- لكن الجهاز يعمل بالكهرباء.

- لقد نسيت.

- سأشتري لك واحداً مثله عندما أحصل على عمل جيد.

- انظر إلى هذه الصورة، تبدو جميلة جدًّاً.

- إنَّها زوجة العم يعقوب.

- تشبه الممثلات في المجلات التي كان يأتي بها أبي من السفر.

- نعم.

- هل لديهم أولاد؟

- ولد وبنت.

- أكيد أنَّها جميلة مثل أمها.

- قد ترين صورتها هناك، لنذهب إلى الغرفة المجاورة.

كانت غرفة الفتاة الصغيرة تطل على حديقة مربعة تنتهي بسياج حديدي تغطيه شجيرات الياس والرازقي، ومضاءة دائماً بضوء فضي ينعكس من مياه النهر التي تجري أسفل الشرفة المعرشة باللبلاب. بدأت أمينة بتنظيف المكان بهدوء، وبين فترة وأخرى كانت ترفع صورة الفتاة التي وضعت على طرف طاولة صغيرة إلى جانب السرير، وتقربها من النافذة وتلقي نظرة على الابتسامة الأبدية لفتاة الصورة. ثمَّ فتحت دولاب الملابس، وأخذت تبحث عن الثياب التي تحتاج إلى الغسل، إلَّا أنَّ كلَّ شيء كان نظيفاً ومصفوفاً كما لو كانت في محلٍّ لبيع الألبسة. وأعادت بعض اللوازم الدراسية إلى أحد الأدراج الصغيرة في الجزء السفلي من دولاب الملابس. وعندما أرادت أن تغلق الدرج، انتبهت إلى صورة كانت قد انسلّت من بين مجموعة من الدفاتر المدرسية القديمة. صورة عائلية التقطت على ما يبدو قبل عشرين عاماً تقريباً. وكان يظهر فيها صاحب القصر يحمل ابنته الصغيرة على ذراعه، ويلفُّ ذراعه الأخرى على خصر زوجته التي أمسكت بكتفي فتى صغير حيث كان جسده يقف إلى جوار ظل الشخص الذي التقط لهم الصورة. تطلّعت أمينة إلى الصورة جيّداً، ثمَّ نهضت وفتحت النافذة، وتفحّصت أجزاء الحديقة المترامية. كانت شجرة الهمبا المسنة التي تظهر في الصورة ما تزال هناك، حيث كان جزء كبير من أغصانها يغطس في الماء عند ارتفاع المد في المساء. وقد تراءت من وراء جذعها الكبير، في الصورة، باخرة ركّاب كبيرة، كانت قد ألقت مرساتها بسبب الضباب الكثيف الذي زحف فوق النهر. وكان بدن الباخرة بعيداً عن حديقة القصر إلَّا أنَّه كان يمكن رؤية بعض المسافرين الذين كانوا على متنها، ويبدو أنَّ المصوّر- الذي ظهر ظلّه الداكن في الصورة مثل صدع مظلم في أرض الحديقة- وقد زحف على جسد الأب وكأنَّه يريد

أن يبتلعه - قد تقصد إظهارهم في الصورة- وقد ساعده الضباب الكثيف في ذلك، بطريقة يصعب التمييز بينهم وبين أوراق شجرة القصر المسنة.

أحسّت أمينة بالدفء يتسلّل إلى أصابع يديها من الظلِّ الذي في الصورة، وعندما انصتت قليلاً داخل الصدع سمعت همهمة رياح سفلية تجوب الأعماق المظلمة. ثمَّ جاء صوت أخيها من خلف الباب مقاطعاً:

- لقد تأخر الوقت، يجب أن نذهب.

- انتظر

- ما هذا؟

- إنَّها صورة

- إنَّها جميلة

- لقد التقطت في الحديقة هناك عند تلك الشجرة الكبيرة، هل تصدق؟

- يبدو أنَّ الشتاء كان بارداً تلك الأيام.

- أتعتقد أنَّها قديمة جداً؟

- لا أدري.

- هناك كتابة على ظهر الصورة.

نظر سعدي في ظهر الصورة، ثمَّ قرأ بصوت مرتفع:

التقطت بتاريخ 31 - 12 - 1948

أنا وزوجتي وولداي يعقوب ومائير، ولا أنسى يوسف النوخذة

الذي التقط لنا هذه الصورة، الذي يظهر ظلّه واضحاً بيننا

- إنّه أبي!

- الظل! لقد عرفته، أقسم بالله، لقد عرفت أنَّه أبي.

لم يكن بمقدور أمينة أن تحتفظ بهدوئها ولو لثانية واحدة، عندما علمت بأنَّ أباها كان جزءاً من هذه الذكرى، إلَّا أنَّها ذكرى مظلّلة ألقى بها ضوء مساء شاحب على جادّة الزمن المفقود. تماماً مثل المسافرين على سطح السفينة الذين بدوا من خلف الضباب مثل أوراق شجرة الهمبا الشاحبة التي تتساقط كلّ مساء في الرياح الباردة. استعادت الصورة من بين يدي أخيها، ودسّتها في جيبها، ومسحت بعض الدموع التي بقيت عالقة في رموشها. وقالت:

- سأحتفظ بها.

تمتم أخوها وهو يمسك بكتفها:

- لا نملك له صورة في البيت.

- ستفرح أمي بذلك كثيراً.

- ولكنّه مجرّد ظل.

حاولت أمينة أن تلقي بالجملة الأخيرة بعيداً عن مسمعها مثل أيّة حشرة مزعجة.

- لننتظر قليلاً في الحديقة.

- لماذا؟

- أريد أن أرى باخرة الركّاب.

خرجا إلى الحديقة، التي بدت موحشة في ظلال المساء الباردة، وتقدما عبر الممر المرصوف بالطابوق الفرشي، باتجاه السياج الخلفي. التفتا يميناً، بعد أن تناهت إليهما وشوشة خافتة من جهة النهر، ولمحا عبر السور الحديدي سحابة كثيفة من الضباب الرمادي القاتم تزحف فوق النهر. أحسّت أمينة بالخوف وهي تنظر إلى الضباب يغطّي النهر كما في الصورة. وتوقّعت أن ترى للتو باخرة الركّاب تمرُّ من أمامها في المياه الساكنة، لتتمهّل قليلاً وتلقي بمرساتها عند شجرة القصر المسنّة. إلَّا أنَّ الدقائق مرّت باردة، وبطيئة، مثل أخيلة الضباب التي تتجمّع فوق النهر، ومن دون أن تعي ما تفعل إلَّا بالكاد، أخرجت الصورة من جيبها، وتلمّست بأطراف أصابعها ملامح الوجوه المسافرة، لعلّها تستطيع أن تفلت أحدهم من ذاكرة الجمود. لكن ماذا عن أبيها؟ كيف لها أن تسترجعه من صدع الصورة المظلم؟ وتذكرت بحزن كلام أخيها قبل قليل. أطرقت قليلاً للفكرة، ثمَّ شعرت بأصابعه تضغط على يدها، ويقول لها بنبرة مواسية:

- يبدو أنَّ باخرة الركّاب لن تأتي هذا المساء.

تسلّلا من فتحات سياج الخوص، وسارا بمهل، عبر الدروب السرية في متاهة النخيل التي تمتد حتَّى مشارف بيتهما الطيني. تساءلت، وهي تنظر إلى الشرر الذي بدأ يتصاعد في تنانير المساء:

- ماذا فعلوا بعمي يعقوب؟

- ربَّما قتلوه، وربَّما أخذوه إلى السجن.

- وماذا فعل حتَّى يأخذوه إلى هناك؟

- لم يفعل شيئاً.

- يقولون إنَّه جاسوس.

- لا أظن ذلك.

- ولماذا تعتقد بأنَّه ليس جاسوساً؟

- لا أدري. ولكنه كان يهتم بنا مثل عائلته.

- أنا كذلك أعتقد بأنَّه كان يحبنا كثيراً.

منزل الرياح

الباب ما قرعته غير الريح

السياب

يدلي بحقيبته وراء ظهره، ويقفز بحذر إلى متن القارب. يعكّر الاهتزاز الطفيف في الماء هدأة الأسماك الغافية في الطين، فتنكفئ ثلاث سمكات أو أكثر إلى عمق النهر المعتم، وتختفي هناك مع الشوشرة التي أحدثتها بانسحابها الوجل. يشير الرجل الذي يجلس عند المحرّك إليه بالتمدّد تحت شبّاك وأدوات الصيد. محذّراً إيّاه من أن يخرج رأسه من قعر القارب إلى أن يسمح له هو بذلك. ويرمي فوقه بقطعة من قماش الخيش، ثمَّ يبتعدان بهدوء فوق المياه الباردة.

تحت الشباك التي لم تنشف بعد من رائحة الصيد، يتوسّد الشاب حقيبته، ويشعر بانزلاق القارب على وجه الماء. يبحث في جيوب سترته وبنطلونه عن منديل أو أي شيء من هذا القبيل، يقلّل به من رائحة السمك الحادّة. يتفطّن صاحب القارب إلى الجلبة البكماء تحت الغطاء الليفي الخشن، فيتخيّل سمكة كبيرة تلبط في شباكه. يرفع عصاه الطويلة ويطرق عند قدميه طرقات خفيفة، فتكفُّ الشباك عن الخشخشة. ثمَّ يغمس العصا في الطين ويدفع بالقارب إلى وسط النهر. يتحاشى قدر الإمكان تشغيل المحرّك الآن، طالما أنَّ جريان النهر سريع في مثل هذا الوقت من الليل، كما أنَّ الرياح مواتية بعض الشيء، فلا حاجة إذاً لإيقاظ العيون وجذب انتباه المخبرين.

عندما يقتربان من مكابس التمور في أبو الخصيب، عند قرية نهر خوز، بعد نصف ساعة تقريباً من انطلاقهما، ينزلق الشاب من تحت غطاء الخيش بحذر،

ويطلُّ برأسه من حافة القارب، وينظر عبر الظلمة النيلية الباردة، إلى ضفتي النهر، وكأنَّه يحاول أن يتبيّن المكان الذي يجتازه القارب. تغوص عيناه في الظلمات المتكدّسة بين القرى الطينية النائمة، ومن هناك يسمع همهمة ريح شمالية باردة تمسّد رؤوس النخيل، وتقشعر لها أبدان المراكب المعطوبة في أحواض التسفين. وللمرّة الأولى، يتنبّه هو الآخر، لبرودة الهواء فوق مياه النهر.

يبدأ القارب بالانحراف قليلاً، جهة اليمين، بمحاذاة سفن الصيد الراسية التي ستنطلق مع صياح الديكة قبل بزوغ الفجر. ومع اقترابهما من الضفّة كثيراً، يعبق الهواء برائحة الياسمين وملكات الليل، ويصبح بالإمكان رؤية أجمات الكروم المعرّشة وأقنان الدجاج الدافئة، خلف الأسيجة الطينية الواطئة للبيوت المطلّة على النهر. ووسط الدكنة البعيدة يلمحان هناك ضوء فانوس يرتعش بين جذوع النخيل ثمَّ يتلاشى خلف جدار مرتفع من الظلال.

يتوقّف القارب عند حافّة مرتفعة تغطّيها الهندباء، فيما يمضي النهر وحيداً باتجاه البحر، وما إن ترتطم مقدّمة القارب بدرجات من الآجر المتآكل والمغمورة بالماء كلياً، حتَّى يتعالى نقيق الضفادع في الأرجاء. يرفع حقيبته إلى كتفه، ويدفع إلى الدليل المبلغ المتبقي من المال، ويغادر القارب صاعداً درجات الآجر بحذر، وسط الضجيج الحاد لحشرات الليل والضفادع النقاقة. يسير بضع خطوات في طريق ترابي ضيّق، ثمَّ يقف متأمّلاً الكوّة السوداء التي تتمدّد أمامه كلّما تقدّم في الظلمات المتكدّسة بين جذوع النخيل. ومن الخلف يسمع أزيز محرّك القارب وهو يبتعد، يتبعه بثوانٍ قليلة صوت انفلاق الأمواج وارتطامها بالحواف الطحلبية. يتردّد قليلاً ما إذا كان يسير في الاتجاه الصحيح أم لا، إلَّا أنَّ ذكرى ضبابية قديمة تعاوده فيتبيّن برغم غشاوتها الطريق إلى بيت أخته. يعدّل من وضع ملابسه، ويتحسّس حقيبته، ثمَّ يقذف بنفسه داخل الكوّة السوداء.

بعد دقائق، يلتمع أمامه ضوء نحاسي، يرتمي من مصباح صغير على ما يبدو في منعطف على جهة اليمين، فينجذب نحوه مثل يراعة لاهفة، ويجد نفسه في شارع عريض، يلوح على أحد جانبيه صفٌّ من المنازل المنتظمة، وإلى الجانب الآخر من الشارع تمتدُّ أرض فضاء تتسامق في نهايتها الجذوع المتراصة لأشجار النخيل. يهبط إلى الساحة الجرداء، ويسير بشكل موازٍ لصفِّ المنازل، لكن بعيداً عن النور النحاسي الخافت الذي ترسله ثلاثة مصابيح مضاءة على مسافات متباعدة. يقف، عند نهاية الشارع، أمام منزل كبير تلفّه الظلمة الكثيفة، وتتلاعب الرياح بأغصان شجرة الأثل التي ترتفع إلى جانبه. ينظر يميناً ويساراً، ويجتاز الشارع مسرعاً ليقف عند سياج الحديقة المنخفض. يلقي نظرة فاحصة داخل المكان، ثمَّ يتسلّق الجدار بخفّة، ويقفز إلى داخل الحديقة. يسند ظهره إلى الحائط ويصغي قليلاً إلى السكون العميق الذي يخيّم على المنزل. يفكّر في أنَّه من الأفضل أن يقضي ليلته في المستودع الصغير الذي يقع في نهاية الحديقة حيث كانت أخته تكدّس أدوات الزراعة هناك، إذ إنَّ طرقة خفيفة على الباب قد توقظ ألف عين في هذا الليل الساكن. يسحب ببطء البساط القطني من على الأرجوحة الحديدية التي تنتصب وسط فسحة يغطّيها العشب، ويلجأ إلى ركن المستودع الدافئ، ثمَّ يضع حقيبته تحت رأسه، ويغرق في نوم عميق خالٍ من الأحلام.

ترتعش على جفنيه أضواء الصباح المتسّربة من بين أوراق الشجر، وتذيب شيئاً من الجليد الذي تجمّع في أوردته. وينقر أذنيه صرير رتيب لمصراعي نافذة يتجاوب مع دوي الريح في الأغصان. ينظر إلى ساعة يده من دون أن يدرك أنَّها الحادية عشرة صباحاً. ومع مرور الدقائق يستعيد شيئاً من وعيه، إلَّا أنّه يظلُّ متمدّداً في فراشه البدائي حتَّى تتبخّر في رأسه آخر قطرة من النعاس، بعد ذلك ينهض، ولكن بصعوبة بالغة، وهو يسمع طقطقة مفاصله المتخشّبة كأنَّها هسيس أعواد يابسة تتحطّم تحت أقدام ثقيلة. يدوس على أنصال العشب الخضل ويتقدّم بخطى بطيئة متثاقلة مثل جريح يطلب المساعدة. يمرُّ بنافذة المطبخ ويلقي نظرة عبر الزجاج

الذي تنسدل خلفه ستارة من التول الأبيض، ثمَّ يقف عند الباب، ويسحب المقرعة النحاسية التي على هيئة رأس أسد ويقرع الباب بهدوء.

في الداخل يسمع صدى صوت المقرعة الخفيف يرتطم بجدران صمّاء. يحاول مرَّةً ثانية وينتظر دقيقتين، لكن لا شيء غير الصمت. يقلّب في ذهنه عدّة فرضيات، إلَّا أنَّه يستبعد أن يكونوا نائمين حتَّى هذه الساعة، كذلك لا يمكن لهم أن يبيتوا في منزل آخر طالما أنَّ زوجها يعمل أستاذاً في الجامعة وله التزامات لا يمكن ان يتنصّل عنها. وفجأة يقشعر بدنه عندما يتفطّن إلى أنَّ السيارة ما تزال رابضة في كراج الحديقة.

يقرّر في الحال أن يخرج ليضغط الجرس، إلَّا أنَّ الفكرة بدت له متهوّرة بعض الشيء طالما أنَّ الحياة قد أخذت تدبُّ في الشارع. يتمهّل قليلاً، ويسند ظهره باكتئاب إلى جذع نخلة هرمة، متأمّلاً نباتات الحديقة المشذّبة منذ مدّة ليست بالبعيدة، والتربة المحروثة جيّداً. وفيما هو يتنقل ببصره عبر أجزاء الحديقة تومض في ذاكرته البعيدة صورة لأمّه وهي تخطو بمهل في حديقة منزلهم القديم وترفع أحد الأحجار أسفل شجرة الحنّاء لتخبّئ تحتها بعناية بالغة مفتاح المنزل الملفوف في قطعة صغيرة من النايلون. يخمّن أنَّ أخته قد اكتسبت هذه العادة من أمّها فيما اكتسبت من مهارات الإدارة وحسن التنظيم. يبتسم لذكرى أمّه ويتمتم بكلمات امتناناً للمساعدة، ويتقدّم من مخبأ أخته عند صفِّ الأحجار التي تفصل المشارب عن وسط الحديقة. يبدأ برفع الأحجار واحداً تلو الآخر، حتَّى يصل إلى الحجر الخامس وعندها يشرد ذهنه إلى حيث البوّابة الحديدية عندما يلمح هناك شيئاً مرمياً على الأرض، يلتقط المفتاح من تحت الحجر بيد ساهمة، ويتجه نحو البوابة إذ يرى أمامه دمية لدب صغير تركت الأمطار على بياضه الناصع نقطاً باهتة. ينفض الدمية بقوّة إذ كانت ما تزال تختزن في جوفها بعض القطرات من الماء. تتملكه مخاوف جديدة، لكنها غير واضحة.

يدير المفتاح مرّتين داخل القفل، ويدفع بيد هادئة باب المطبخ. في الداخل، يظهر له كل شيء أبيض ونظيف، ستائر التول، شراشف الدانتيل التي تغطي الكونتوار، الأرضية الممسوحة جيّداً، طاولة الطعام التي يتدلّى من حوافها مفرش مخرم ويرتفع في وسطها أصيص من الفخار المزخرف ترتفع في تربته ثلاث نبتات من ورد الداوودي الأبيض والأصفر وضعت في هذا المكان عن قصد حيث تنغمر بشعاع من نور الصباح ينساب عبر زجاج النافذة لساعة كاملة. وحول أصيص الزهور توزعت ثلاثة صحون من الصيني، امتلأت بالبيض المقلي والجبن مع مربى التين التي كانت أخته تجيد تحضيرها في المنزل، وقدحان من الشاي.

الإفطار جاهز، لكن ليس هناك من يتناوله!

يغادر المطبخ إلى غرفة الجلوس ومنها إلى صالة الاستقبال. وباستثناء الصرير الأبدي لمصراعي النافذة التي تدمدم في مكان ما في الأعلى، فإنَّ الهدوء كان يخيّم على كلِّ شيء في المنزل: المدفأة الخامدة في الركن، الأرائك الخشبية المرتبة بطريقة تبدو معها أنَّه لم يجلس عليها أحد، التلفاز الذي يختبئ تحت منديله المخرم والنظيف دائماً، جهاز الراديو القديم وهوائيه الذي يمدُّ عنقه في الفراغ القريب من الستارة البيضاء التي تنسدل بأريحية على النافذة حيث ترتعش وراءها أغصان شجرة الحنّاء. يصعد درجات السلّم منجذباً إلى صوت الريح في الطابق العلوي، وكأنَّه كائن شبحي يخطو تحت تأثير نغم ذاتي السحر، لا يقاوم. يقف في الممر وينتظر حتَّى تهدأ أنفاسه، ثمَّ يتقدّم نحو الغرفة التي حدس أنَّ الصوت يأتي منها. يصغي من وراء الباب، لكن لا شيء سوى ذلك الصرير الرتيب الذي لم ينقطع منذ الأمس. وبأسلوبه المتحضّر الذي لم يتخلَّ عنه، يطرق على الباب ثلاث طرقات خفيضة على الرغم من معرفته المسبقة بخلوِّ المكان، ثمَّ يخطو إلى داخل الغرفة. يغمض عينيه لحظة وهو يتنفّس بعمق ذاكرة المكان، ويتحسّس بأصابعه المتربة أغلفة الكتب التي انكب على قراءة صفحاتها لليالٍ طويلة، إنَّها الغرفة التي يعرفها

جيّداً. ينظر عبر النافذة المفتوحة فيرى الساحة الممتدّة إلى الجانب الآخر من الشارع، حيث تخطُّ الأفق المنظور غابة من النخيل، فيما يحرك سرب من الطيور بياض أجنحته في الزرقة الداخنة نحو البحر. يتجنب الاقتراب من النافذة ويفكر في أن يدعها مفتوحة كما هي. يلتقط صحيفة من على سطح المكتب ليتأكد من تاريخها، ثم يعيدها إلى مكانها.

يريح ظهره إلى كرسي المكتب شارداً بين أكوام الكتب المكدسة في رفوف المكتبة الخشبية الضخمة التي تغطي الجدار الأيمن بأكمله، يقرأ باهتمام ملحوظ عناوينها الناتئة بأحرف مذهبة، كما لو كان يبحث عن كتاب بعينه، يمرُّ أمامه شريط عناوين الكتب متباطئاً شيئا ما. يتمهّل قليلاً ثمَّ يرجع ببطء إلى الوراء، ليتوقّف بعدها عند شارع السردين المعلّب، هناك حيث يمكنه أن يسمع الآن الهدير الأبدي لمصانع التعليب، ويلوح له من بعيد ضوء مصباح خافت يتدلّى أمام بيت دورا، ويشاهد عن كثب "لي تشونغ" يقف في دكانه الحاشدة أمام زجاجات الويسكي وهو ينقر بأصابعه النحيلة سطح طاولته الزجاجية حيث تصطف علب السيجار.

يتناول الكتاب من على الرف ويتنشّق قليلاً رائحة الورق التي أدمنها، ويعود به إلى المكتب ليبدأ بقراءته مرَّةً أخرى من دون أن يجد تفسيراً لهذا التعلّق الغريب. يفتح الكتاب وتنزلق منه قصّاصة صغيرة وتستقر على طيّات بنطاله، ولكنَّه يغفل عنها ويشرع بقراءة الصفحة الأولى من الرواية:

"شارع السردين المعلب في مونتيري من أعمال ولاية كاليفورنيا هو في الحق قصيدة، ونتانة، وضجة ذات صرير، ودرجة من الضوء، ونغم، وعادة، وحنين إلى الوطن، وحلم من الاحلام في آن معاً"

تهبُّ في الخارج ريح قويّة، فتَصدر غابات النخيل المترامية عبر الساحة همهمة عميقة، وتئنُّ جنيات المساء في الأجمات الهاجعة، ويرشح من فتحات أسيجة

الخوص بخار أنفاسها الباردة. فيثب فزعاً ويتنبّه إلى أنَّه قد قضى ساعات طويلة في القراءة من دون أن يشعر بظلال المساء القارسة وهي تحتشد حوله في الغرفة. يضع الكتاب وينظر عبر النافذة فيرى المغيب قد أخذ يضيء مصابيحه القرمزية تباعاً فوق شرفات الأفق الداجي، ويدلق على عتبات المدى دلواً من ألوانهِ الواجمة. ويسمع بعض الطيور تهسهس وهي تعود إلى شجرة الأثل التي تنتصب خارج النافذة طلباً للدفء. وفي مكان ما هناك، حيث لا يمكنه أن يرى شيئاً، تنحدر سيارتان على طريق موحل وبين مدّة وأخرى تكشف أضواءهما المتنقّلة بين الطريق وقمم الأشجار عيني حصان منهك أو طائراً يطرف وحيداً في الظلمة.

ينتشل جسده من الكرسي، لكن قبل أن يقف على قدميه يلمح في الظلام ورقة صغيرة تهوي بين قدميه، يتناول القصاصة وبواسطة الضوء المتسرّب من الفضاء القرمزي يقرأ فيها الكلمات التي خطت بعجالة على ما يبدو:

أعرف أنّك ستبحث عن هذا الكتاب

غادر المنزل بأسرع وقت

10 / كانون الثاني / 1969

يظلُّ يقظاً في المكتبة من دون أن يجازف بإشعال الضوء، ويكتفي بالوهج المعتم الذي يرشح من الغيوم الحمراء الخفيضة التي بدأت تندفع فوق القرى الطينية الضجرة. يتطلّع بشرود إلى الجو الداخن، وليل كانون الثاني الذي يرشق الغرفة بريح باردة. يحرّك أصابعه بهدوء على سطح المكتب وينقر بسبّابته على القصاصة نقرات مضطربة إلّا أنَّها بدت له متناغمة مع حفيف الستارة المشوّش. يعيد قراءة الرسالة مرّةً أخرى، فتنقبض أضلاعه وتفور في داخله حسرة كلّما نظر إلى التاريخ المدوّن عليها. فجأة يغمر الغرفة ضوء بلاتيني لامع، يعقبه صوت قرقعة عظيمة في السماء، فتضطرب أنصال الهندباء حول مراكب الصيد الغافية عند حواف

الشط، وتسحب كائنات الليل رؤوسها لتغطس في عتمة الأحراش هرباً من شوشرة الأجواء. يقذف الليل دفعة أخرى من الريح باتجاه النافذة، تبتعد القصاصة في فضاء الغرفة وتهوي متكاسلة عند الباب. تهمي قطرات صغيرة من المطر، صغيرة جداً بحجم ذرات الغبار العالقة في خزائن الألم، تهمي على الزجاج الأمامي للسيارتين اللتين تتقدّمان الآن على مشارف أبو الخصيب في الطريق الموحل وسط البساتين الهاجعة. يشغل السائق في إحدى السيّارتين الماسحات فتظهر أمام أضوائه الكاشفة بوضوح لوحة السيارة الأخرى التي تتقدّمه ببضعة أمتار.

تنعطف السيّارة المضاءة من الخلف في طريق متعرّج يكاد يلامس النهر في أماكن معيّنة، ومع المطر والظلام المضب لم يعد بالإمكان التمييز بين صواري السفن المعطوبة في المرافئ القديمة وبين جذوع النخيل النابتة في عمق هذا الليل الضارب في السواد الذي لا يحتمل شرارة عود ثقاب. لكنَّ كابينة السيارة تومض بوهج سيجارة بينما يزلق السائق زجاج النافذة الجانبية قليلاً إلى الأسفل، فينجرف نغم الدشت من مسجّل السيّارة على أكواخ الطين التي بدت في الأرض الموحلة مثل كمآت ناتئة. يشتدُّ سقوط المطر، وتسوط الريح أكتاف القرى، وتطفئ يد النعاس آخر فوانيس المساء.

عند نهاية المنعطف يطرف الضوء الأيمن الخلفي للسيارة الأولى عدّة مرّات قبل أن تلتف في شارع عريض، فتتهادى خلفها السيارة الأخرى على مسافة قريبة بعض الشيء. ثمَّ تلتمع السيّارتان في ثلاث دوائر من ضوء نحاسي باهت تلقيها ثلاثة مصابيح مضاءة عند مرورها بصف طويل من المنازل.

تقف إحداهما أمام البوّابة الحديدية لمنزل كبير، حيث يتدلّى غصن ثقيل من شجرة أثل هرمة، وينزل منها رجلان يرتديان الملابس الرسمية. يترك السائق ماسحات السيارة تعمل بسبب المطر الكثيف، وينظر بالمرآة الجانبية فيرى انعكاساً مشوّهاً للسيّارة الأخرى التي تقف وراءه على مسافة ثلاثين متراً.

تغمر مصابيح السيّارة جدار المكتبة بالضوء المتسرّب من النافذة، يرى من مكانه في النصف الثاني من الغرفة الذي ما يزال يعوم في ظلمات راكدة، شقّاً ضيّقاً بين صفوف الكتب المتهيّجة، ويتناول رواية شارع السردين المعلّب من على المنضدة وينهض من دون أن ينحني لتلافي الضوء الكاشف ويعيد الكتاب في شقّه القديم. يجرف أصابعه على النتوءات البارزة لأسماء الكتب، وفي نهاية الرف يستلُّ من بين الكتب صورة صغيرة له تجمعه بسلام عادل ويدسّها في جيب سترته. ثمَّ يعود إلى كرسيّه. بعد لحظات يسمع صرير البوّابة الحديدية وهي تُفتح ببطء، مع وقع أقدام ثقيلة تخطو على مجاز الحديقة تحت العريشة التي ترشح مطراً واهناً، يتحوّل مسار صوت وقع الأقدام إلى الداخل في الطابق الأرضي، وتزحف فوق درجات السلّم غمغمة مرتفعة، لكنَّها غير مفهومة. يغمض عينيه، يحاول أن يلتقط الأصوات القادمة من الأسفل، تنبع قطرات صغيرة باردة من العرق في صدغيه، لكنّه لا يسمع غير صوت الريح. إنَّها الريح دائماً..

بعد عشر دقائق يعود الرجلان وبصحبتهما امرأة تحاول بجهد أن تبعد خصلات منفلتة من شعرها الكستنائي عن وجه الطفل الذي يغفو بهدوء على أحد كتفيها. يفتح أحد الضابطين الباب للمرأة التي لم تنتبه للدمية عندما أفلتت من يدي ابنها قبل أن يجتازوا البوابة، فيما يصعد الزوج، الذي حافظ على هدوئه، في السيارة الأخرى. تضيء مصابيح السيارتين خيوط المطر المائلة، ثمَّ تبتعدان إلى الأبد، في الظلمات المتكدّسة بين جذوع النخيل.

ضوء المدفأة

إذا لم يكن هناك شيء سينقذنا من الموت،

فلينقذنا الحب من الحياة على الأقل.

بابلو نيرودا

كانت الساعة حوالي السابعة مساءً، عندما سمع الناس في البيوت القريبة من محطّة المعقل، صوت القطار وهو يطلق زمجرته الأخيرة في المساء الغائم، قبل أن يفرغ على أرصفة الليل الموحلة بقايا مسافريه الذين لم تمضغهم المحطّات السابقة جيّداً. لينسلّوا، أخيراً، تحت أضواء الطريق الخافتة، مثل أشباح دائخة.

مسافر واحد، بدا متردّداً، في اختيار الوجهة المناسبة، عندما خرج من بوّابة المحطّة، ووقف على الرصيف الإسمنتي للشارع. لم يكن يحمل في يده سوى حقيبة صغيرة، إلّا أن خطواته بدت بطيئة بعض الشيء، كما لو كان يعاني من ألم ما في إحدى قدميه. نظر إلى يمين الطريق، فلم يجد في نفسه رغبة في الذهاب إلى هناك. وعندما التفت إلى يساره، رأى أضواء الميناء تتألّق من وراء أشجار يوكالبتوس تلوح من فوقها رافعات عملاقة تنغرس في قلب العتمة، ومداخن سفن تميل مع الريح فوق مياه شط العرب.

اجتاز الشارع نحو الجادة اليمنى، وسار بمحاذاة أسيجة واطئة لعدد من البيوت المتماثلة، التي ألقت بخضرة حدائقها على رؤوس المارّة. تنفّس بعمق رائحة الطعام المتسربة من فتحات التهوية، ففاقمت من شعوره بالجوع والبرد. تذكّر بأنَّه لم يتناول شيئاً منذ طعام الغداء، وقد نام طوال الساعات الخمس في مقعده من دون

أن توقظه جلجلة العربات أو صخب المسافرين. وعندما أفاق وجد أنَّ معدته فارغة تماماً بفعل الارتجاج الأبدي لتلك الكونتوارات المعدنية.

رأى ظلّه الطويل منكسراً على السياج الواطئ، عندما أضاءت سيارة مسرعة الشارع للحظات قبل أن تختفي في طريق فرعي حيث ينعطف مسار السكة التي تأتي من رصيف نمرة 4 نحو محطّة القطارات الرئيسة. وعندما بلغ الطريق العام، لوّح بيده لسيّارة أجرة، وطلب من سائقها أن يقلّه إلى أحد الفنادق القليلة الكلفة، والقريبة من بريد العشّار. تقدّمت السيّارة بسرعة كبيرة وسط الشوارع التي بدت هادئة في مثل هذا المساء البارد، إذ لم يصادفا ما يؤخّرهما، سوى بضعة سيارات تركت ضجيجها لبعض الوقت ثمَّ اختفت. إلّا أنَّ السائق أخذ يقلّل من سرعته كلّما اقتربت السيارة من مركز المدينة. وبعد دقائق كان قد توقّف عند واجهة بناء قديم، نظر من مكانه في السيارة إلى اللافتة القديمة المثبّتة على ارتفاع منخفض التي تطرّقت بمزيد من الثقة إلى اسم الفندق: فندق الأصدقاء الدولي.

فتح الباب بهدوء، ووقف في وسط الصالة للحظة، قبل أن يخرج عليه رجل في الأربعين من عمره تقريباً، رحّب به ودعاه للجلوس.

- غرفة لليلة واحدة.

- ليلة واحدة؟

- نعم.

- أغلب غرف الفندق هي بإيجار شهري.

- سأبحث عن فندق آخر.

- يمكنك أن تنام الليلة في غرفتي فأنا لا أشغلها أبداً، وإذا أردت سأرسل لك فتاة لتنظيف المكان، والاهتمام بأمورك.

- اتفقنا.

أخرج مفتاح الغرفة من جيبه، بعد أن دوّن اسم النزيل في دفتر قديم:

- إنَّها في الطابق الأخير، على يمينك.

- شكراً لك.

لحسن الحظ كان الفندق يتألّف من ثلاثة طوابق فقط، إلَّا أنَّ الصعود عبر السلّم ذي الدرجات المهدّمة والمظلمة عقَّدَ الأمر على المسافر الذي بدأ يعرج قليلاً بسبب آلام رجله اليمنى التي رافقته طوال الرحلة. واجهته رائحة البرد عندما دفع الباب وأطلَّ برأسه في داخل الغرفة. الهواء راكد في الداخل، والشراشف ما تزال تحتفظ برائحة مسحوق الغسيل. إنَّه يكذب، قال في نفسه، ليست غرفته، أين ملابسه، هذا الدولاب فارغ أيضاً، إنّه يكذب.

أخرج من حقيبته بيجاما للنوم، وعلبة سجائر نوع روثمان، ومجلّة فتحها على صفحة التعارف ووضعها إلى جانب مغلّف كبير يحتوي على بعض الرسائل والبطاقات البريدية. نشر الرسائل التي ما يزال يحتفظ بها داخل أغلفتها، ورتّب البطاقات البريدية حسب تواريخ وصولها على شرشف السرير الأبيض. تناول إحدى الرسائل وقرأ لمرّات عديدة العنوان المكتوب بخطٍّ واضح أسفل الورقة إلى يمين حرفي اسم المرسل.

فتح النافذة الصغيرة التي تطل على زقاق ضيق تكدّست الظلمة في قاعه، وشعر بدفقة من هواء الليل البارد تلسع وجهه. تتبع مسار الزقاق المعتم، المحاذي لجدران

بنايات مرتفعة، تطلُّ عليه بنوافذ خلفية أغلبها ردمت بألواح من الخشب والصفائح المموّجة، وينزل من سطوح بعضها سلالم إنقاذ حديدية طويلة تنتهي على مسافة قريبة من الأرض، حيث تتكاثر هناك بالقرب من براميل النفايات مجاميع كبيرة من القطط التي لا تكف عن الشجار طوال ساعات الليل. اصطدم نظره بلافتة برزت بشكل عرضي في نهاية الزقاق، حاول أن يقرأ الحروف المقلوبة التي تظهر على ضوء مصباح باهت، ولكنّه سمع طرقاً خفيفاً على باب غرفته. فتح الباب، ورأى خيال فتاة جميلة تقف أمامه. ابتسمت له بتردّد، وقالت:

- أستاذ صدقي؟

- نعم أنا هو

- أرسلني صاحب الفندق لتنظيف المكان

- لقد أخبرته بأنّي سأتولّى الأمر بنفسي

- لكنَّ هذا هو عملي، دعني أقوم به.

دخلت الفتاة التي لم يتجاوز عمرها الخامسة والعشرين بعد، وتفحصت بنظرها محتويات الغرفة النظيفة، كانت ترتدي تنورة طويلة وجاكيته من القطن، ومع هذا كانت تشعر بالبرد ينفذ إليها من تحت أظافرها. طلبت منه أن يغلق النافذة، ولكنَّه رفض ذلك.

- أحتاج إلى بعض الهواء النقي.

- لكنّك ستصاب بالأنفلونزا.

سكت فترة، ثم قال:

- أظن أنَّ الغرفة نظيفة بما فيه الكفاية.

تظاهرت بأنَّها لم تسمع جملته الأخيرة، واتجهت إلى النافذة، وانحنت بجسدها قليلاً وهي تطلُّ برأسها في الفراغ المظلم. تأمّل بنظرات حذرة جسدها المصقول جيّداً من الخلف، وخصلات شعرها التي ارتفعت وراء ظهرها بفعل الهواء الخفيف الذي كان يمرُّ من النافذة. تفاجأ من سماع صوته الأجش يسأل عن اسمها بنبرة من يريد أن يفتح حديثاً للسهرة:

- ما اسمك؟

- تهاني

- اسم جميل

- منذ متى وأنت تعملين هنا؟

- منذ مدّة ليست بالقصيرة، ولكنّني أعمل هنا بدوام جزئي، عملي الرئيس هو في الملهى.

- أنت راقصة إذاً؟

- يمكنك أن تقول ذلك.

التفتت إليه، ثمَّ اتجهت إلى السرير، ورفعت إحدى الرسائل وقرأت العنوان المدوّن عليها:

- هل أنت ساعي بريد؟

- لا

- لمن هذه الرسائل كلّها إذاً؟

- إنّها لي

- من حبيبتك؟

- نعم

- يبدو أنّها تحبّك كثيراً!

- منذ ثلاث سنوات ونحن نتبادل الرسائل،

- هل تحبها؟

- كثيراً.

- هل لديك سيجارة، أعطني واحدة.

أشعل عود كبريت ورفع الشعلة إزاء وجهها وراح يتطلّع إليه في الوهج الراقص، لاحظ قطرات صغيرة من العرق البارد رشحت على جبهتها، وقد بدت أكثر رقّة واستسلام، لكنَّ نظراتها كانت متردّدة وتائهة أمام النور. أشعلت سيجارتها الروثمان، وأرسلت نفخة من الدخان وأطفأت بها عود الكبريت الذي عرّى أوجاعها للحظات. التفتت نحو النافذة، وقالت:

- أشعر بالبرد

- سأغلق النافذة

- لا تغلقها، يمكنك أن تستخدم المدفأة، هناك في الزاوية.

وضع المدفأة في وسط الغرفة، وخلال دقائق قليلة بدأت الغرفة شيئاً فشيئاً تنعم ببعض الدفء. نزعت الفتاة الجاكيتة وانسلّت بهدوء تحت اللحاف وتمدّدت إلى جانب الرسائل، وراحت تنظر إلى وجه المسافر على ضوء المدفأة وقد تفاجأت قليلاً بملامحه الجميلة وهو يتحدّث عن حبيبته المفقودة.

- لقد كتبت لي الكثير، رسالة كلّ شهر تقريباً. بعدها باتت الرسائل تصلني كلّ أسبوع، لم تتوقّف عن ذلك. كانت تذكر لي تفاصيل حياتها كلّها وحياة أهلها وأصدقائها. لقد أحسست بأنَّها تجرّني إلى عالمها يوماً بعد يوم.

- ثمَّ ماذا حدث؟

- لقد توقّفت عن الكتابة فجأة.

- منذ متى وصلتك آخر رسالة؟

- حوالي الستة أشهر. لا أدري ما الذي حصل، لذا ركبت القطار وجئت إلى هنا للبحث عنها.

- هل تعرف عنوانها، هل أخبرتك أين تسكن؟

- لم تخبرني على وجه التحديد، لكنّني أعتقد أنَّها تسكن في مكان لا يبعد كثيراً عن بريد العشار. لأنَّها ذكرت في إحدى رسائلها بأنَّها كانت تذهب إلى مكتب البريد سيراً على الأقدام.

- لا يمكنك أن تجدها بهذه الطريقة.

- أتساءل إن كانت قد ماتت أو تزوّجت أو رحلت إلى مكان ما. أريد فقط أن أعرف ما الذي دفعها إلى الانقطاع عن مراسلتي بشكل مفاجئ من دون أن تذكر لي في آخر رسالة بأنَّها ستذهب إلى الأبد.

- هكذا هي قصص الحب، دائماً ما تنتهي بالفراق والدموع.

- افترقنا مع أنَّنا لم نتقابل مرّة واحدة!

- هذا محزن.

- أتعرفين شيئاً؟

- ماذا؟

- يراودني شعور بأنَّها تشبهك.

- ولماذا تظن ذلك؟

- ثمَّ أن اسمك يبدأ بحرف التاء.

جلست في الفراش ووضعت يدها على كتفه، ثمَّ انزلقت بهدوء من على حافة السرير وألقت برأسها المثقل بالأفكار على كتفه، وراحا ينظران إلى ضوء المدفأة:

- يجب أن أجدها.

- يمكنك أن تبحث عنها في الصباح، عندما تشرق الشمس ويخرج الناس إلى الشارع. قد تجدها جالسة في الباص متوجّهة إلى الجامعة، أو قد تكون تنتظر دورها الآن في صالون نسائي، وربَّما لن تعثر لها على أيِّ أثر.

شعرا بدفقة من الهواء البارد دخلت عبر النافذة، ارتجفت معها الظلال الجامدة في الغرفة، وفاجأت سكون الضوء في الفتيل المتقد. ثمَّ همست له بصوت خائف:

- سأطلعك على سر صغير.

- ما هو؟

- أحدهم يريد قتلي.

- هل تمزحين؟

- أنا جادة

- هل أبلغت الشرطة؟

- لن يصدقني أحد حتَّى يجدوني ميتة.

- وماذا ستفعلين؟

- لا أعرف، سأواصل حياتي فقط.

- لم لا تغادرين؟ اذهبي إلى أي مكان آخر.

- سيعرف مكاني.

- وكيف سيعرف؟

- لا فائدة، أتمنى أن أموت هكذا وأنا جالسة أمام ضوء المدفأة، كي لا أشعر ببرودة الموت تتسلّل إلى جسدي.

- كثيراً ما يموت الناس بالطريقة التي يفضّلونها!

- هل تعتقد حقّاً بأنّها تشبهني؟

- نعم.

- وهل تستطيع أن تحبني مثلما أحببتها؟

- لا أدري. سأخبرك في الصباح.

- سأنام الآن بهدوء، حاول ألّا تصدر صوتاً.

- لن تكون هناك ضجّة تذكر..

الفهرس

أشباح هافانا 5

heartbreak Hotel 21

الرقصات المجرية 31

بيبسي وأشباح وذرة 49

الضباب فوق النهر 71

منزل الرياح 87

ضوء المدفأة 99

أشباح هافانا

سبعة عوالم تعيدنا إلى يوتوبيا مدينة لم تعد موجودة، بل تعيش الآن حالةً من التشظّي ومسخ الهوية البحريّة لها، سبعة عوالم ترسم ملامح مدينة البصرة التي عاشت في مخيّلة ما زالت حيّة، لكنّها تعتاش على ما يمكن أن نسمّيه: الحلم.

يبني القاص مصطفى الصيّاح مجموعته الأولى (أشباح هافانا) بأسلوب حكائي جميل، ولغة رشيقة، ويحيلنا إلى كتب منسية، ألّفها رحّالة في القرون الماضية، رسموا فيها تلك المدن كما رأوها في ذلك الوقت، حتّى وإن لم يستلهم الصيّاح هذه القصص من تلك الكتب، لكنَّه تمكّن بقدرته القصصيّة على إحياء ميناء المعقل، بشكله الذي أسس في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وشوارع البصرة التي عبَّدها بطريقته كما لو أنَّه عاصر تلك الحقب التي كانت مدننا حينها في أبهى صورها.

يقدّم لنا هذا الكتاب تجربة متميزة في كتابة القصة القصيرة، ومرجعيات كاتبها الثقافية والبيئية، كأنه يطرح خلاصة تجربة خاصّة في هذا الفن.

ISBN 978-9922-8600-8-4
9 789922 860084

شهريار
حكاية في كتاب ...